
تيريز
Thérèse Desqueyroux
٥٠ مليما

تيريز

للكاتب الفرنسي الكبير

فرنسوا مورياك

عضو الأكاديمية الفرنسية

تعريب الأستاذ

محمود عبد المنعم

ربى ، ارحم المجانين والمجنونات ؟
ارحمهم يا خالق الكون ، هل يمكن
ان يوجد وحوش من بنى البشر فى
نظر الذى يعرف وحده لماذا وجدوا
وكيف سووا ، وكيف كان يمكن
خلقهم على غير ما هم عليه ؟

شارل بودلير

مقدمة

سوف يقول الكثيرون ، يا تيريز ، الا وجود لك . ولكنى أعرف انك حقيقة ماثلة ، أنا الذى قضيت السنوات الطويلة اتبصص عليك ، وكثيرا ما استوقفتك فى الطريق ، وكثيرا ما تفحصت وجهك .

وكم أذكر ، عندما كنت مراهقا ، انى لمحت وجهك الأبيض الصغير ، فى احدى القاعات الخانقة التى تعقد فيها جلسات الجنايات وانت مستسلمة الى المحامين الذين كانوا اشفق عليك من السيدات المتبهرجات .

بعد ذلك برزت لعينى فى أحد منتديات الريف ، ولك ملامح امرأة .. امرأة شابة عابسة ضجرة بالرعاية التى تحيطك بها قريباتك العجائز ويبذلها لك زوجك الساذج ، وهم يتساءلون ، ولكن ما دهاها ؟ . السنا نحبوها بكل شيء ؟ .

من ذلك الحين كثيرا ما شاهدت يدك المفرطة فى الكبر نوعا ما وهى تمتد الى جبينك العريض الجميل . وكم من مرة رأيتك من خلال الحواجز الحية التى تتكون منها أسرة من الأسر ، وانت تدورين وتلفين بخطوات كخطوات الذئبة وتسددين الى نظراتك المليئة بالحقد والحزن معا .

سوف يدهش الكثيرون لما اقدمت عليه من تصور هذه المخلوقة التى بزت جميع الآخرين قسوة وبشاعة . ولكن هل فى استطاعتى أن أحكى شيئا عن الناس الذين تتفجر الفضيلة منهم والذين يحملون قلوبهم على أيديهم ؟ . ان الذين يحملون قلوبهم على أيديهم لا قصص لهم بينما أنا عليم بقصص القلوب الدفينة التى تختلط بأجساد من الطين .

ـ كنت أود يا تيريز ، ان ينتهى بك الألم الى طريق الله . ولطالما

تمنيت ان تكونى جديرة باسم القديسة لوكوستا (١) ولكن لو حدث ذلك لثار الكثيرون محتجين على ما فى هذا التشبيه من اثم وامتهان لقدسية الاسماء ، على الرغم مما يسلمون به من ضعف نفوسنا المعذبة التى يجوز لها ان تسقط مرة ثم تبرأ من سقطتها .

على انى اذ اتركك فى عرض هذا الطريق يساورنى الأمل فى انك لست الوحيدة فيه .»

---

(١) رومانية اشتهرت بجرائم القتل بالسم استخدمتها اجريبينا لقتل كلوديوس كما استخدمها نيرون للقضاء على بريتانيكوس . حكم عليها بالاعدام فى سنة ٦٨ للميلاد (المترجم) .

— ١ —

فتح المحامى الباب . شعرت تيريز دى كويرو ، فى هذا الممر المنزل من ممرات سراى العدل ، بالضباب يلفح وجهها فاستنشقته بعمق كبير . انها تخشى التباطؤ ولكنها تتردد فى الخروج . هناك رجل قد تدثر فى ثيابه حتى عنقه . انه يخطو بعيدا عن شجرة الساج التى التصق بجذعها . لقد عرفت فيه اباها . صاح المحامى قائلا :

— لا وجه لاقامة الدعوى ..

ثم التفت الى تيريز وقال :

— يمكنك الخروج . لا يوجد احد .»

هبطت تيريز الدرجات المبتلة . حقا . يبدو الميدان الصغير مقفرا . لم يقبلها ابوها بل ولم يدر نحوها نظره ، وانما راح يوجه الاسئلة الى المحامى دورو الذى كان يبعث بردوده فى صوت خفيض كأن شخصا يسترق السمع الى حديثهما . وكانت كلمات الرجلين تصل الى اذنى تيريز مبهمة غامضة .

قال المحامى :

— سأتسلم غدا التبليغ الرسمى بعدم وجود وجه لاقامة الدعوى .

فسأله الأب :

— الم يعد هناك محل لاية مفاجأة اخرى ؟ »

ورد عليه المحامى

— كلا .. لقد طبخت الطبخة كما يقولون .

فقال الأب :

— بعد الشهادة التى ادلى بها زوج ابنتى ، اصبح الامر منتهيا .»

فرد عليه المحامى :

— منتهيا .. منتهيا .. من يدرى !»

وقال الأب :

— ما دام هو نفسه باعترافه لم يكن يعد قطرات الدواء ابدا .»

فاعترض المحامى قائلا :

ـ هل تعلم يا لاروك .. فى مثل هذه القضايا .. شهادة المجنى عليه ...

وهنا ارتفع صوت تيريز تقول :

ـ لم يكن هناك مجنى عليه ..

فبادرها المحامى قائلا :

ـ سيدتى .. لقد اردت أن اقول ان اهماله هو الذى جنى عليه .

فنظر الرجلان هنيهة الى المراة الشابة وقد وقفت بلا حراك ملتفة فى معطفها وتاملا وجهها الشاحب وقد خلا من التعبير ..

سالت تيريز عن العربة التى كان ابوها قد استوقفها تنتظر خارج المدينة لكيلا يثير وجودها انتباه أحد .

اخترق الجميع الميدان ، وقد التصقت بمقاعده التى بللها المطر اوراق الساج المتساقطة . كان النهار لحسن الحظ قد قصر كثيرا وللوصول الى طريق بودو يمكن سلوك أكثر الشوارع اقفارا فى البلدة . سارت تيريز بين الرجلين وقد ارتفعت هامتها فوق قامتهما بينما راحا مرة أخرى فى النقاش كأن لا وجود لها معهما . ولم يكن يضايقهما الا الفاصل الذى يبعدهما عن بعضهما بوجود هذه المراة بينهما فاخذ كل منهما يدفعها بكوعه . عندئذ تخلفت عنهما قليلا وخلعت قفازها لتلتقط شيئا من الطحلب العالق بالحائط الذى تسير الى جواره . ومن وقت لآخر يمرق بالقرب منها عامل ممتط دراجته او عربة صغيرة ، فكان الوحل المتطاير يلجئها الى الاحتماء بالجدار . ولكن عتمة المساء كانت تلتف بتيريز فتحجبها عن اعين المارة ولا يعرفها احد . ولم تكن الروائح المنطلقة من الافران والمنبعثة من الضباب المنتشر هى مجرد عبيق المساء فى بلدة صغيرة وانما كانت تيريز تجد فيها عبير الحياة وقد ردت اليها بعد لأى .. فكانت تغلق عينيهـا على انفاس تلك الارض النائمة المعشوشبة المبتلة . وكانت تجاهد فى الا تصغى الى حديث ذلك الرجل القصير ذى الساقين الضئيلتين المقوستين الذى لم يلتفت مرة واحدة نحو ابنته . انها لو سقطت مغشيا

عليها على حافة هذا الطريق لما شعر بها ابوها ولما أحس بها دورو بعد أن زالت عنهما الرهبة فرفعا عقيرتهما بالحديث ..

قال احدهما :

ـ لقد كانت شهادة مسيودى كويرو جيدة .. نعم .. ولكن تلك التذكرة الطبية .. انها فى الواقع مزورة .. وكان الدكتور بيدامى هو الذى تقدم بالشكوى ..

أجابه الآخر :

ـ لقد سحب هذا الطبيب شكواه ..

ـ على كل حال ، الحجة التى قدمتها .. وهـذا الشخص المجهول الذى أعطاها التذكرة الطبية ! .

حاولت تيريز عبثـا أن تخفف من خطاها ليس لأن السير اتعبها ؛ ولكن لتتحاشى سماع تلك الكلمات التى صدعوا بها رأسها طوال الاسابيع الماضية . ولكن استحال عليها عدم سماع صوت ابيها الذى كان يصرخ قائلا :

ـ لطالما قلت لها : أيتها البائسة ، ابحثى لك عن شىء آخر .. ابحثى لك عن شىء آخر ..

❊ ❊ ❊

لقد قال لها ذلك مرات عديدة وكان من حقه أن يطمئن الى سلامة موقفه . فما الذى يقلقه بعد ذلك ؟ ان ما يسميه الشرف والاسم قد خرجا سليمين من المأساة . والى ان يحين موعد الانتخابات لمجلس الشيوخ لن يذكر احد تلك القصة بأثرها . هذا ما كانت تفكر فيه تيريز وهى تود لو لم تلحق قط بالرجلين . ولكن الرجلين ، وقد أخذتهما حدة المناقشة ، توقفا فى وسط الطريق واندفعا يشوحان بأيديهما .. قال المحامى :

ـ صدقنى يا لاروك ، واجه الامر بجراة ، بادر الى الهجوم فى عدد الاحد القادم من جريدة « الزارع » هل تفضل أن اتولى انا هذه المهمة ؟ يلزمنا عنوان مثل « الاشاعة الخبيثة » ..

رد عليه زميله قائلا :

ـ لا يا صديقى .. لا .. لا .. كيف يكون الرد ؟ .. من الواضح

ان التحقيق قد داخلته (الكلفتة) حتى انهم لم يستشيروا فيه واحدا من خبراء الخطوط ، ليس أمامنا غير الصمت والكتمان .. هذا كل ما أعرفه . سوف أناجز وسوف أبذل من مالى .. ولكن من أجل سمعة الأسرة يجب اخفاء ذلك كله .. يجب اخفاؤه ..

لم تسمع تيريز ماذا كان رد دورو على هذا الكلام لان المحامى كان قد اسرع الخطو . فعادت تستنشق الليل المطير مرة اخرى كما لو كانت انسانا يعانى الاختناق . وفجأة حضر الى ذهنها وجه مجهول هو وجه جولى بيلاد ..جدتها لأمها .. انه وجه مجهول .. انك لتبحث عبثا لدى أفراد عائلة لاروك او لدى أفراد عائلة دى كويرو عن رسم أو صورة لهذه المرأة التى لا يعرف عنها اى انسان شيئا الا انها قد ذهبت فى يوم من الايام . تخيلت تيريز انها ربما كانت ستمحى هى الأخرى كما محيت جدتها وتتلاشى حتى يتعذر فيما بعد على ابنتها مارى الصغيرة أن تعثر فى احدى المجموعات على صورة المرأة التى جاءت بها الى هذه الدنيا .. ان مارى ، فى هذه اللحظة ، تنام فى احدى حجرات ارجلوز حيث تعمل تيريز فى تلك الليلة متأخرة . وسوف تصغى هذه المرأة الشابة فى الظلام الى الطفلة فى رقادها وسوف تنحنى عليها وتلثم بشفتيها كالماء تلك الحياة النائمة .

على حافة الطريق كانت تسير عربة مرخاة الستر بينما تنعكس اضواء مصابيحها على أرداف الجوادين النحيلين المعلقين بها .. والى الأمام على جانبى الطريق كانت ترتفع حوائط سوداء من اشجار الغابة تنتشر على اليمين وعلى اليسار متعانقة القمم وتحت هذا القوس المعقود كان الطريق الخفى ينحدر مندسا . وكانت السماء فوق الرءوس لابسة برداء من فروع الشجر .

اخذ الحوذى يسدد نظراته الى تيريز فى اهتمام نهم . وحينما سألته هل سيصل بهم فى الموعد المناسب لركوب القطار الأخير من محطة نيزان طمأنها وأضاف انه على كل حال يحسن الاسراع وعدم اضاعة الوقت ..

قالت تيريز :

- هذه هى المرة الأخيرة التى اكلفك فيها هذه المشقة ياجاردين

فأجابها الحوذى :

- ألم يعد لك يا سيدتى ما تفعلينه هنا ؟

هزت رأسها بينما ظل الرجل يلتهمها بنظراته . هل قدر لها أن تظل طوال حياتها هكذا نهبا للأنظار ؟

- اذن انت مسرورة !

وجه اليها ابوها هذا السؤال وقد بدا انه تنبه فى نهاية الأمر الى وجودها بجواره . فاسرعت تيريز تلقى نظرة فاحصة خاطفة على هذا الوجه الذى شوهته المرارة وقد تناثرت على أديمه شعيرات جافة بيضاء اللون فى اصفرار وجلت قسماته اضواء مصابيح العربة . ثم قالت فى صوت خافت « لقد تعذبت كثيرا .. انى متعبة ... » . ثم كفت عن الكلام . فما جدوى كلماتها ؟ انه لايصغى اليها ولا يراها . وما شأنه بما تحس به تيريز ؟ ان كل الذى يهمه هو الوصول الى احد مقاعد مجلس الشيوخ وقد قامت العراقيل فى سبيله بسبب هذه الابنة .

- انهن كلهن هكذا .. اما مجنونات او معتوهات . انها لم تعد لحسن الحظ تحمل اسم لاروك . ان اسمها الآن دى كويرو . لقد امكن تحاشى محكمة الجنايات ، ولذلك فهو يتنفس الصعداء كيف السبيل الى منع الخصوم من فتح هذا الجرح ؟ من الغد سوف يذهب الى مقابلة عمدة البلدة . حمدا لله فما زال مدير صحيفة « اللاند المحافظة » فى صفنا . اف لهذه القصص التى تثيرها الفتيات الاغرار ! .. قبض الاب على ذراع تيريز وقال :

- هيا اصعدى سريعا . لقد حان الوقت ...

هنا تكلم المحامى ، ربما بدافع الخبث ، وربما بدافع الرغبة فى الا يترك تيريز تتصرف من غير أن يوجه اليها كلمة منه . فسألها عما اذا كانت ستذهب منذ تلك الليلة الى لقاء مسيو برناردى كويرو فأجابت

- ان هذا أمر مؤكد . طبعا . ان زوجى ينتظرنى .

قفز الى ذهن تيريز وهى تلقى بهذه الكلمات خاطر يقول :

ان تلك هى المرة الاولى حقا ، منذ ان غادرت مكتب قاضى التحقيق ، التى تتذكر فيها انها بعد بضع ساعات سوف تجتاز عتبة الحجرة حيث يرقد زوجها ومازال يعانى المرض ، وان سلسلة لا نهاية لها من الايام والليالى سوف تمتد امامها ويكون عليها خلالها ان تعيش ملتصقة بهذا الرجل .

حقا ، ان تيريز قد قطعت من قبل مرات عديدة هذه الرحلة نفسها التى تقوم بها فى تلك الليلة . لقد كان ذلك اثناء المدة التى قضتها فى منزل ابيها ، الواقع بالقرب من منافذ البلدة الصغيرة منذ بدء التحقيق معها . ولكن رحلاتها السابقة كانت لغرض آخر ، هو ابلاغ زوجها تطورات التحقيق . ولطالما اصغت قبل ان تركب العربة الى توجيهات دورو ونصائحه بشأن الاجابات التى يلتزم بها مسيو دى كويرو عندما يعيد المحقق سؤاله . ولم يكن يخالج تيريز فى ذلك الوقت اى قلق او ضيق فى مواجهتها لهذا الرجل المريض . وكان اهتمامها وقتئذ منصرفا كله ، لا الى ماحدث فعلا ، ولكن الى ما يجب ان يقال وما لا يجب أن يذكر فى التحقيق . لم يحدث قط ان كان الزوجان فى حياتهما الزوجية على مثل هذا التقارب الذى ساد بينهما بسبب هذا الدفاع .. ان جسدا واحدا كان يشدهما الى بعضهما ، هو جسد ابنتهما الصغيرة مارى .. كان جل همهما منصرفا الى تاليف القصة البسيطة المتماسكة التى تروى للقاضى وتكفى لاقناع نزعته القانونية . كانت تيريز فى تلك الفترة تركب تلك العربة نفسها التى تركبها فى تلك الليلة وتتحرق رغبة فى الوصول الى نهاية تلك الرحلة الليلية التى تتمنى الآن الا ترى لها نهاية . كم كانت تتشوق ، فى ذلك الوقت ، بمجرد صعودها الى العربة ، ان ترى نفسها بين جدران تلك الغرفة فى ارجلوز . انها تستعيد فى ذهنها التوجيهات التى كان ينتظرها منها برنار دى كويرو .. كانت هذه التوجيهات تقول : عليه الا يخشى ان يؤكد فى التحقيق واقعة حديث زوجته له ، فى احدى الليالى ، عن تلك التذكرة الطبية التى صرفتها من الصيدلية ، بناء على رجاء رجل مجهول توسل اليها بحجة عدم استطاعته التوجه بنفسه الى الصيدلى الذى يطالبه

بديون سابقة لا يستطيع سدادها الآن .. وكان المحامى دورو يرى الا يتمادى برنار فى تلفيق هذا الدليل الى حد الزعم بانه عاب وقتئذ على زوجته اقدامها على ارتكاب مثل هذه الحماقة .

تساءلت تيريز بعد أن تبدد عنها هذا الكابوس ، عما سوف يتكلمان عنه هى وبرنار ؟ تمثل فى ذهنها هذا البيت الضائع الذى ينتظرها فيه زوجها . فرات فى خيالها السرير القابع فى وسط الغرفة ذات البلاط المربع ، والمصباح الخفيت على المنضدة وسط أكوام الجرائد وزجاجات الدواء .. وتخيلت كلاب الحراسة وقد نبهها صوت العربة فأخذت تنبح ثم عادت الى الهدوء ، وبعد ذلك الصمت الرهيب كتلك الليالى الطويلة التى طالما تطلعت اثناءها الى برنار وهو يعانى نوبات القىء الشديد ، حاولت تيريز ان تتخيل النظرة الأولى التى سوف تتبادلها معه بعد لحظة ، ثم فى تلك الليلة ثم فى اليوم التالى ثم فى الايام المقبلة والاسابيع القادمة ، وهما معا فى ذلك البيت فى ارجلوز ، حيث ان تكون بهما حاجة الى تلفيق الرواية الزائفة للمأساة التى عاشاها معا .. لن يكون بينهما بعد الآن الا ما حدث حقيقة .. ما حدث حقيقة .. عند هذا الخاطر ارتعدت تيريز رعبا وقالت متلعثمة وهى توجه كلامها الى الأب العجوز وتدير وجهها ناحية المحامى :

— انى انوى البقاء بضعة أيام عند مسيو دى كويرو وبعد ذلك اذا استمر التحسن فى صحته ، سوف أعود عند أبى ..

— اما هذا فلا ، لا ، لا ، يا صغيرتى .

واذ اخذ الحوذى جاردير يتحرك فوق مقعده قال مسيو لاروك فى صوت اقل حدة :

— هل جننت تماما ؟ كيف تتركين زوجك فى هذا الوقت ؟ . يجب ان تكونا كاصبعى اليد الواحدة . هل تسمعين ؟ حتى الموت .

— انت على حق يا ابى .. اين كان عقلى ؟ .. اذن انت الذى سوف تجىء الى ارجلوز ؟ ..

— كلا بل سوف أنتظركما يا تيريز فى منزلى أيام الخميس حيث يعقد السوق .. ستجيئان كما كنتما تفعلان دائما من قبل .

ثم تساءل الأب كيف تاه عن فهمها ان اقلّ خروج على العادات المرعية معناه الموت لهما جميعا . وقال مؤكدا :

ـ اتفقنا على ذلك اذن ؟ واستطيع الاعتماد عليك فيه ياتيريز؟ يكفي ما سببته للعائلة من آلام ..!

ـ ستفعلين كلّ ما يطلب منك زوجك عمله ، وليس لدى ما اقوله اكثر من ذلك ..

بعد هذه الكلمات اندس الأب داخل العربة ..

رات تيريز يد المحامى تمتد نحوها بأظافرها الجافة السوداء وسمعته يقول :

ـ كل ما كانت خاتمته خيرا فهو خير ..

وكان حقا يعنى ما يقول اذ لو ان القضية سارت سيرها العادى لما عادت عليه منها اية فائدة بل للجأت العائلة الى الاستعانة بالاستاذ بيير كاف من محامى بوردو .. حقا ان كل شيء انتهى على ما يرام ..

- ٢ -

ما اكثر ما كانت تيريز تحب هذه الرائحة العطنة المنبعثة من الجلد المكسوة به مقاعدالعربات العتيقة . لم تحزن كثيرا لنسيانها سجائرها فهى تكره التدخين في الظلام . مصابيح العربة تلقى اضواءها على المنحدرات المتتابعة وعلى عناقيد السرخس المتدلية وعلى اقدام اشجار الصنوبر الشامخة .. أكوام الحصى المتناثرة تمزق الظلال المسايرة للركب .. ومن وقت لآخر تمر عربة ريفية فتتجه بغالها تلقائيا ناحية اليمين من غير ان يتحرك سائقها النائم بداخلها . خيل لتيريز انها لن تصل ابدا الى ارجلوز وتمنت لو لم تصل اليها قط .. سارت العربة ساعة او اكثر من ساعة قبل ان تصل الى محطة نيزان ، ثم يأتى بعد ذلك هذا القطار الضئيل الذى يتوقف طويلا عند كل محطة .. من بلدة سانت كلير حيث يكون نزولها ، سوف يبقى أمامها عشرة كيلو مترات اخرى حتى تصل الى ارجلوز .. هذه الكيلومترات ستقطعها تيريز بالعربة مرة اخرى لأن الطريق لا يسمح بمرور السيارة فيه ليلا .. قد

يقفز القدر فى اية مرحلة من هذه المراحل وينقذها . استسلمت تيريز الى تخيلاتها التى كانت تغشاها فى الليلة السابقة علىالحكم لو أن الاتهام ظل قائما ضدها .. انه الشعور بتوقع حدوث زلزال أرضى عنيف .. خلعت قبعتها واسندت الى الجلد الذى تفوح منه الرائحة راسها الصغير المتمايل واسلمت جسمها لهزات الطريق الوعر .. لقد عاشت حتى ذلك المساء نهبا للهجمات .. وها هى الآن بريئة فاخذت تقيس ما حل بها من انهاك .. خدود كالحفرات ، وجنات وشفاه غائرة ، ثم تلك الجبهة الرائعة . كل ذلك ينم عن وجه امراة محكوم عليها .. نعم .. محكوم عليها بالرغم من ان الناس قد اسقطوا عنها التهمة ، محكوم عليها بالوحدة الأبدية .. جمالها ، وقد اعترف الجميع من قبل بسحره الذى لا يقاوم ، هذا الجمال متوفر لنساء اخريات لها وجوه تكشف عن الالم الدفين وعن انبعاثات الجرح العميق ، ولكنهن يدبن فى الخداع سترا لما خفى واظهارا لغير ما بطن .. فى تلك العربة المتمايلة فوق هذا الطريق الوعر الممتد وسط اشجار الصنوبر الكثيفة تضطرب امراة عارية الوجه وهى تمسح فى بطء بيدها اليمنى جبهتها المضطربة .. ما هى الكلمات التى سوف يبتدرها بها برنار وقد كانت شهادته الكاذبة هى سبب نجاتها ؟. لاشك انه لن يوجه اليها سؤالا ما فى هذه الليلة .. ولكن ماذا عن الغد ؟ اغلقت تيريز عينيها ثم عادت ففتحتها ، واخذت تتعرف على هذه المرحلة الصاعدة من الطريق ، بينما سار الجوادان الهوينا .. لعل من الخير لها الا تفكر فيما سيكون ، فربما كان الامر ابسط كثيرا مما يدور بخلدها .. لا تفكر فيما سيكون .. ولتستسلم الى النوم .. لتغب عن الوعى وعن العربة معا .. ما هذا الرجل الجالس خلف المنضدة الخضراء ؟ .. قاضى التحقيق ... ؟ هو ايضا .. ؟ اليس يعلم ان الدعوى قد سويت؟ كلا . انه يهز راسه من اليسار الى اليمين . لا . لا يمكن اصدار القرار بعدم وجود وجه لاقامة الدعوى . هناك وقائع جديدة قد ظهرت .. وقائع جديدة ؟..

ادارت تيريز رأسها لكى لايرى هذا الخصم العنيد الاضطراب المرتسم على وجهها .. ها هو يسألها :

— عودى الى ذكرياتك ، يا سيدتى ، الم تنس شيئا فى الجيب الداخلى لتلك السترة القديمة ، السترة التى لا ترتدينهـا الا فى اكتوبر عندما تذهبين لصيد الحمام البرى ؟ الم تنسى فيها شيئا ؟ الم تخفى فيها شيئا ؟ ..

لا وسيلة للاحتجاج .. انها تختنق .. لم يحول القاضى نظره عن الفريسة ، وفى صمت رهيب وضع على المنضدة امامه علبة صغيرة مختوما عليها بالشمع الاحمر .. تستطيع تيريز أن تعيد الكلمات المكتوبة على غلاف العلبة .. تلك الكلمات التى اندفع القاضى يرددها فى صوت حاد كئيب : كلوروفورم ٣٠ جرام ، اكونيتين ٢٠ حبة ، ديجيتالين محلول ٢٠ جرام ..

انفجر القاضى ضاحكا .. بينما صرخت فرامل العربة وهى تحتك بالعجلات .. استيقظت تيريز من غفوتها .. امتلأ صدرها المتمدد بالضباب .. انه بلا شك سيل الضباب الأبيض المتساقط .. لطالما حلمت .. وهى طفلة مراهقة .. أحلاما مزعجة كهذه عند ما كان يؤرقهـا الخوف من الغلطات التى قد تضطرها الى اعادة امتحان الشهادة الابتدائية .. انها فى تلك الليلة تتذوق نفس الراحة التى كانت تشعر بها عند افاقتها من كوابيسها فى تلك الايام البعيدة .. لم يكن يفسد هذا الاحساس اللذيذ الا بقية من قلق بسبب عدم صدور قرار حفظ الدعوى بصورة رسمية ..

ولكنها تذكرت ما قيل لها : « تعلمين طبعـا ان القرار يجب أن يبلغ الى المحامى أولا » ..

فعاد اليها شىء من الاطمئنان ..

***

ها هى الآن حرة طليقة .. ما الذى تتمناه اكثر من ذلك ؟ .. سيكون من هينات الأمور ان تجعل حياتها مستطاعة مع برنار .. فما عليها الا ان تكشف له عن قرارة نفسها والا تترك شيئا فى الخفاء .. هذا هو الطريق السليم . ليبرز الى وضح النهار كل ما كان مستورا .. وليكن ذلك منذ الليلة فورا .. صممت تيريز على ذلك وغمرها التصميم بالسرور .. قبل وصولها الى ارجلوز سوف تجد من الوقت متسعا لاعداد اعترافها . كلمة «الاعتراف» هذه هي التى كانت ترددها صديقتها التقية المتدينة .. آن دى

لاتراك فى أيام السبت التى تخللت أجازتهما السعيدة .. ! يا اخيتى آن ، أيتها البريئة العزيزة ، اى وضع هو وضعك انت فى هذه القصة كلها ..! ما اكثر ما يجهل الناس الاطهار ما يحيط بهم وما يخالطون فيه كل يوم وكل ليلة ! ما اكثر ما يغفلون عن الأعشاب السامة التى تنبت تحت أقدامهم البريئة !

لقد كانت على حق ، بلا شك ، تلك الفتاة الصغيرة ، عندما كانت تكرر القول لتيريز — الطالبة الثانوية ذات التفكير العقلى والمزاج الساخر :

— ليس فى استطاعتك ان تتصورى هذا الاحساس بالخلاص الذى يتبع الاعتراف والغفران ، عندما يصبح الضمير صافيا يعود المرء منا الى مزاولة حياته فى صفحة جديدة ..

حقا ، لقد غمر شعور بالانفراج اللذيذ بمجرد أن صممت فى قرارة نفسها على الاعتراف لزوجها بكل شىء ..

— سيعرف برنار كل شىء .. سأقص عليه كل شىء ..

ما الذى سوف تقوله له ؟ باى الاعترافات تبدأ ؟ هل تكفى الكلمات لتهدئة ذلك التسلسل المبهم من الشهوات الجامحة والرغبات المصرة والاندفاعات التى لا يمكن توقعها ؟ كيف يتصرف اولئك الذين يعترفون بجرائمهم ؟ ..

— أما انا ، فلست اعرف لى جرائم ، اننى لم أرد تلك الجريمة التى اتهمونى بها .. لا اعرف ما الذى كنت اريده .. لم اعرفه قط الى أين تتجه تلك القوة المجنونة الهائجة التى بداخلى والتى من حولى .. لم أعرف ما الذى كانت تهدمه هذه القوة فى طريقها لقد كنت انا نفسى فى رعب منها ..

المصباح البترولى المعروف يلقى ضوءه على حائط محطة الميزان المطلى بالجير وقد استقرت الى جواره عربة صغيرة .. ما اسرع ما تلف الظلمة كل شىء على بعد خطوات حول المحطة من القطار الواقف هناك على الخط الفرعى ينبعث فحيح كأنه نشيج مكتوم حزين .. اخذ جاردير حقيبة تيريز وعاد يحملق فى وجهها مرة أخرى كمن يحاول افتراسها بعينيه .. لعل زوجتها قد أوصته ؟

— انظر اليها جيدا لترى كيف هى وكيف تبدو ..

واجهت تيريز حوذى ابيها بتلك الابتسامة الحلوة التى طالما قال الناس عنها :

ـ ان المرء لايتساءل عما اذا كانت جميلة او دميمه ولكنه يخضع لسحرها ....

ـ طلبت من الحوذى ان يذهب ليحجز لها مكانا فى القطار . انها تخشى اختراق قاعة الانتظار حيث جلست فلاحتان وعلى ركبتى كل منهما سلال وقداخذتا تحركان رأسيهما وهما منهمكتان فى اشغال الابرة .

عندما عاد الحوذى بالتذكرة قالت له ان يحتفظ لنفسه بباقى النقود . فلمس بيده حافة قبعته وبعد أن جمع فى يده لجم الخيل التفت مرة اخيرة ليلقى نظرة على وجه ابنة سيده .

لم يكن القطار قد تجمع شمله بعد . كم من مرة ، فيما مضى ، كانت تيريز لاروك وآن دى لاتراف تسعدان لساعة الانتظار هذه ، فى محطة نيزان ، وهما راجعتان اليها فى فترة الاجازات او عند العودة الى المدرسة ـ كانت الصديقتان تأكلان فى حانة القرية البيض المقلى على شرائح من لحم الخنزير ثم تنطلقان ، وقد لفت كل منهما ذراعها حول خصر زميلتها . على هذا الطريق الذى تكسوه الليلة المظلمة السوداء والكآبة . لم يكن هـذا الطـريق ، فى تلك السنوات الخوالى ، الا ساطع البياض فى ضوء القمر . كانتا تفرقان فى الضحك لمنظر ظلالهما وقد استطالت واختلطت وتلاشت . كان حديثهما يدور بلا شك حول مدرساتهما وحول زميلاتهما فى الدراسة ـ كانت احداهما تدافع عن الدير الذى تتعلم فيه بينما تطرى الاخرى مزايا ومحاسن مدرستها الثانوية .

ـ آن ....

ـ لفظت تيريز هذا الاسم بصوت مرتفع فى الظلام . يجب ان تبدأ حديثها مع برنار عن آن . برنار .. ! ياله من رجل دقيق .. ! قادر على تمييز العواطف بعضها عن بعض وعلى وضع الواحدة منها بعيدة عن موضع الاخرى .. ! انه يجهل تلك السراديب الخفية التى تمزج ما بين المشـاعر وتخلط الأحاسيس ببعضها البعض .

أيقف السبيل الى ادخاله فى تلك المناطق المبهمة التى طالما عاشت فيها تيريز وتجرعت فيهـا كؤوس العذاب ؟ ولـكن هذا ما يجب الوصول اليه . لن يكلفها الامر ، بعد قليل عندما تدخل الى تلك الغرفة ، الا ان تجلس متهالكة على حافة السرير ثم تنطلق مستدرجة برنار من مرحلة الى مرحلة الى ان يوقفها هو عن الاسترسال فى الكلام ويقول :

ـ كفى ؟ انى فهمت كل شيء الآن . انهضى . لك الغفران .

اخترقت تيريز حديقة ناظر المحطة وهى تتحسس طريقها وشمت عبير زهور الكرنيرنتيم من غير ان تراها . عربة الدرجة الاولى خالية تماما . على ان النور المنبعث من مصباحها الضئيل ماكان يكفى لاضاءة وجهها . لم تستطع القراءة . واى القصص لم تكن فاترة الى جانب قصة حياتها الرهيبة ؟ انها ربما ماتت من العار او من القلق او من الندم او من الاعياء ، ولكنها قطعا ماكانت لتموت من الملل وحده .

استراحت فى جلستها فى ركن المقعد واغلقت عينيها ـ هـل يمكن لامرأة لها كل هذا الذكاء وكل هذه الفطنة ان تعجز عن ان تجعل هذه المأساة شيئا مفهوما واضحا ؟ نعم ـ سيأخذها برنار من يدها بعد انتهائها من الاعتراف ويوقفها قائلا :

ـ اذهبى يا تيريز فى سلام . لاتتركى القلق يتطرق الى بالك بعد اليوم . سنبقى معا فى هذا البيت ، فى ارجلوز ، ننتظر الموت من غير ان نفرق بين الأوضاع التى استقرت وقضى فيها الأمر .

انى ظمآن .. اهبطى أنت الى المطبخ واعدى لى كوبا من عصير البرتقال .

ساكرعها حتى ثمالتهـا ولو بدت لى عكرة . ليس يهمنى ان يذكرنى مذاقها بتلك الكوب من الشيكولاته التى شربتها فيما مضى ذات يوم فى الصباح . هـل تذكرين ياعزيزتى نوبات القيء التى انتابتنى ؟ كانت يدك الحبيبة تسند راسى وما كنت لتحيلى عينيك عن ذلك السـائل الاخضر الـكريه ، لم تكن نوبات الاغمـاء التى تصيبنى تخيفك ، ومع ذلك شـحب لونك فى تلك الليـلة التى اكتشفت فيها ان ساقى قد انعدمت فيهما الحركة وزال عنهـما

الاحساس . كنت ارتجف . هل تذكرين ؟ وهذا الطبيب القبى الدكتور بيدامى الذى كان يدهشه ان تنخفض درجة حرارتى وان يضطرب نبضى الى ذلك الحد ... !

قالت تيريز تخاطب نفسها :

– يا الهى . انه لم يفهم كلامى . يجب أن اعيد كل ماقلته... منذ البداية ...

اين تبدأ اعمالنا ؟ ان نصيبنا من القدر ، اذا ما اردنا ان نعزله عن غيره وننظر اليه منفردا ، ليتمثل فى ذلك النبت الذى يستحيل اقتلاعه بجذوره كلها – هل ستضطر تيريز فى رواية اعترافاتها الى الرجوع لطفولتها الاولى ؟ ولكن أليست الطفولة نفسها هى نهاية ووصول لما هو قبلها ؟

طفولة تيريز : لقد كانت ثلوجا تغطى صفحة المنبع الذى انبثق منه اكثر الانهار كدرا – فى المدرسة الثانوية بدت وكانها تعيش لاهية غائبة عن المآسى التافهة التى كانت تمزق زميلاتها . ولطالما ساقت المدرسات الى هؤلاء الزميلات مثلا يحتذى هو تيريز لاروك . كن يقلن فى اعجاب

– تيريز لاتطمع فى اية مكافاة اكثر من السعادة التى تغشاها عندما تحقق فى ذاتها الطراز السامى للانسانية . ان ضميرها هو الضوء الوحيد الذى تستضىء به . وهو يكفيها . انها تجد فيما تشعر به من كبرياء لانتسابها الى خلاصة الجنس البشرى عونا تستند اليه خيرا مما يفعله الخوف من العقاب .

– هذا ماكانت تردده احدى مدرساتها دائما . ولقد اخذت تيريز تسائل نفسها :

– هل كنت سعيدة الى هذا الحد فعلا ؟ ... ام هل كنت نمرة ساذجة ؟.. ان كل ما سبق زواجى يكتسى فى مخيلتى هذا المظهر الطاهر النقى . وهو بلا شك نقيض ذلك التلوث الذى لايمحى ابدا ، التلوث المصاحب لليلة العرس . ان المدرسة الثانوية التى عشت فيها قبل ان اصبح زوجة وأما تبدو فى ناظرى الآن فردوسا ، ولم اكن ادرك هذا فى ذلك الوقت . كيف كنت استطيع ان ادرك

ان تلك السنوات السابقة على حياتى كانت هى حياتى الحقيقية ؟ الطهر ! .. لقد كنت طاهرة ! .. ملاكا ! .. لقد كنت ملاكا نعم ! ... ولكنى كنت ملاكا مشحونا بالشهوات . لقد تعذبت على الرغم مما كانت تزعمه مدرساتى ، وعذبت غيرى ايضا . كنت اتلذذ بالالم الذى احدثه للآخرين واسعد بالالم الذى تحدثه لى صديقاتى . يا له من عذاب طاهر لم يخالطه ندم !. ان اسباب سرورى البرىء كانت كلها وليدة هذه الآلام وهذه الأفراح .

ان اعز ما كانت تفرح له تيريز كان عند حلول فصول الصيف تذهب لصاحبتها تحت اشجار البلوط فى ارجلوز . كانت بها حاجة لأن تقول لتلك الطفلة التى تتلقى تربيتها عند راهبات الساكر كير : « لكى اكون فى مثل طهرك هذا لا حاجة بى لارتداء كل هذه الشرائط ولا لتكرار كل هذه الصلوات .. » ان ما يحيط آن دى لاتراف من براءة وطهر ليس فى جوهرة الا جهلا . ان راهبات الساكر كير يقمن آلاف الحواجز بين الحقيقة والفتيات الصغيرات اللاتى ينشئنهن . ولكم كانت تيريز تحتقر هؤلاء الراهبات لخلطهن بين الفضيلة والجهل . لطالما عايرت آن فى تلك الايام الصيفية البعيدة فى ارجلوز . :

– انت يا عزيزتى .. انت لا تعرفين الحياة ...

تلك الايام الصيفية الحلوة .. تذكرتها تيريز وهى فى ذلك القطار الصغير الذى بدأ اخيرا يتحرك بعد طول وقوف . اعترفت بينها وبين نفسها ان تلك الأيام الخوالى هى التى يجب ان ترجع اليها اذا ما أرادت ان تجلو نظرتها للأمور . يا لها من حقيقة عجيبة كيف يذخر فجر حياتنا الطاهر بالأعاصير الجارفة التى تظل فيه معلقة لا تنقض ؟ وكيف يكون ذلك الصبح المشرق ذو الزرقة الزاهية اشارة نحس لفترة ما بعد الظهر والمساء ونذيرا لما سيحل فيها بالكون من كوارث : خضرة مدمرة وأغصان مكسرة ووحل لا اول له ولا آخر ؟ .. لقد عاشت تيريز من قبل لا تشغل ذهنها بشىء . لم يحدث فى اية لحظة من لحظات حياتها ان اهتمت بارهاصات الفكر والتدبير .. لقد خلت حياتها من المنحنيات المفاجئة وسارت فى طريق سهل المنحدر . لقد كان هبوطها فى هذا الطريق

لينا فى اول الامر ، ثم سريعا بعد ذلك . ان المرأة الضائعة فى هذا المساء هى نفسها المخلوقة المشرقة التى عاشت ايام الصيف البعيدة فى ارجلوز حيث تعود الليلة هاربة متخفية فى الظلام .

يالشـــدة ما بها من تعب واعياء ! ما جدوى البحث عن تلك الأسباب الخفية التى حركت ما كان كامنا؟من خلال زجاج النافذة لا ترى المرأة الشابة شيئا غير انعكاس صورة وجهها الشاحب . هبطت سرعة سير القطار الضئيل وانطلق من القاطرة صفير طويل انه يقترب فى حذر من احدى المحطات . مصباح يحركه ذراع انسان ، نداءات متبادلة بلهجة العامة ، صرخات حادة آتية من صغار الخنازير التى يفرغونها . هذه بلدة اوزيست . لم تبق غير محطة واحدة ثم يصل بعدها القطار الى بلدة سانت كلير . ومنها الى ارجلوز ستضطر تيريز الى ركوب عربة صغيرة تقطع بها هذا الجزء الأخير من الرحلة . ماأقصر مابقى لهامن وقت لاعداددفاعها .

- ٣ -

أرجلوز . . انها حقا على حافة العالم القصوى . بقعة من تلك البقاع التى يتعذر السير الى ما وراءها . انهم يطلقون عليها هناك اسم « الربع » . بضعة منازل ريفية لا كنيسة لها ولا عمودية ولا جبانة . البيوت مبعثرة حول حقل من الشوفان على بعد عشرة كيلو مترات من سانت كلير . هذه المسيرة يقطعها العابر فى طريق وعر وحيد . طريق ملىء بالحفر والشقوق . ومن الجانب الآخر لأرجلوز لايوجد غير دروب رملى تتوه رسومه طوال ثمانين كيلومترا حتى يصـــل الى شاطىء المحيط . اراض بور تكسوها البرك والمستنقعات وتتناثر فيها أشجار الصنوبر الهزيلة . انها منطقة اللاند التى تتلون فيها الأغنام فى نهاية فصل الشتاء بلون الرماد .. فى هذا الربع الخالى نشأت كبريات العائلات التى تقطن سانت كلير . ففى منتصف القرن الماضى شرع اجداد أولئك الذين يعمرون الآن تلك القرية فى استغلال عصارات الاشجار واخشابها لزيادة الموارد الضئيلة التى كانت تغلها لهم قطعان الاغنام ، فتحولت بيوتهم فى ارجلوز الى مساكن ودواوير للمزارعين .. ومازالت آثار النعمة

الغابرة بادية الى اليوم ، ترى فى النقوش المحفورة على عتبات الأبواب والنوافذ وعلى رخام المدافىء الباقية على الزمن ، دور عتيقة تتداعى عاما بعد عام حتى لتكاد اسطح بعضها من فرط ما بها من جهد واعياء تلامس الأرض باجنحتها الـكبرى .

لكن بيتين من تلك البيوت العتيقة بيتان ما زالا الى اليوم سكنا لاصحابهما : عائلتا لاروك ودى كويرو . لقد حرصت العائلتان على الاحتفاظ لداريهما فى ارجلوز بما كانتا عليه وقت انتقالهمـا اليهما عن الاجداد . جيروم لاروك ، عمدة بلدة ب . وعضو مجلسها البلدى كان يحتفظ بالقرب من ابواب البلدة بمقره الرئيسى ولكنه لم يشا ان يغير شيئا من معالم مزرعته فى ارجلـوز . لقـد ورث تلك المزرعة عن زوجته التى ماتت فى اثناء الوضع ؛ وكانت تيريز ما تزال فى المهد طفلة . لم يكن الأب يدهش اذن لما يراه من ميل ابنته ميلا شديدا الى قضاء اجازاتها فى تلك المزرعة . فمـــا ان يحل شهر يوليو من كل عام حتى تهرع تيريز الى ارجلوز تعيش فيها فترة الصيف فى رعاية اخت كبرى لابيها تدعى العمة كلارا ، عجوز عانس صماء ، تعشق هى الاخرى هذه العزلة لانها — كما كانت تقول — لا ترى فيها شفاها تتحرك بالكلام ولا يسمع أحد فيها غير صفير الرياح بين اشـجار الصنوبر . على أن ما كان يستريح له مسيو لاروك من ذلك هو ان ارجلوز اذ تبعد عنه ابنته لفترة من الزمن كانت تقرب ما بين هذه الابنة وبين برنار دى كويرو الذى يتحتم عليها ان تتزوجه فى يوم من الأيام تنفيذا لرغبة العائلتين ، وان كان الاتفاق على ذلك لم يصبح رسميا بعد .

وبرنار دى كويرو هذا ورث من ابيه بيتا فى ارجلوز مجاورا لبيت عائلة لاروك . لم يكن احد يراه فى هذا البيت قبل افتتاح موسم الصيـــد ، ولم يكن يتخذ منه مبيتا له الا فى شهر أكتوبر حيث نصب بالقرب منه برجا لاقتناص الحمام البرى . اما فى الشتـــــاء فـكان هذا الشاب العاقل يتابع دراسة الحقوق فى باريس ، ولم يكن يقضى مع عائلته فى الصيف الا اياما قائل ، فقد كان يضيق ذرعا بفكتور دى لاتراف زوج امه الذى اقترنت به بعد ترملها من ابيه ، وهو رجل خالى الوفاض تتحدث بلدة سانت كلير

باسرها عن اسرافه ونفقاته الباهظة . ان آخته لأمه – آن – مازالت في نظره طفلة صغيرة لا تستحق منه اهتمام . هل كان حظ تيريز من اهتمامه كحظ آن ؟ ان الناس جميعهم يعتبرونهما منذ الآن زوجين . اليس يبدو ان ما يملكه أحدهما انما خلق ليندمج فيما يملكه الآخر ..! وكان الشاب العاقل الرزين يتفق فى ذلك مع الناس جميعا وان لم يترك من الامور شيئا للصدفة المجردة . انه يحرص مفاخرا على اتباع خير ما فى الحياة من نظام . ولطالما ردد هذا الشاب المائل الى السمنة :

– لن يصيب المرء الا اخطاؤه وما جنت يداه ...

ان وقته مقسم بالقسطاس بين العمل واللهو وان كان فى ذلك كله لاينكف عن طيب الطعام ولا عن جيد الشراب ولا عن لذة الصيد بوجه خاص . انه يعمل ، كما تقول امه ، « على طول الخط » لان الواجب يقضى بان يكون الزوج اكثر علما من زوجته . الم تشتهر تيريز فى كل مكان بالذكاء والفطنــة ؟ ... ان لها لذهنا حادا ...! هذا لاشك فيه ..! ولكن برنار خبير بالأسباب التى تخضع لهــا المراة . ولطالما قالت له امه ان من الخيــر أن يمــد قدميه فى كلا المسكرين فقد يستطيع حموه لأروك ان يساعده فى يوم من الايام . كان من المقدر ، عندما يبلغ سن السادسة والعشرين وبعد أن يقوم برحلات ، يعد لها العدة منذ الآن ، الى ايطاليا واسبانيا والبــلاد الواطئة ، ان يتزوج من اغنى فتيات اللاند وارجحهن عقلا ، وربما لم تكن اكثرهن حسنا ولكن « المرء لا يتساءل عما اذا كانت جميلة ام دميمة ولكنه يخضع لسحرها »

ابتسمت تيريز للصورة الكاريكاتورية التى رسمتها فى مخيلتها لبرنار وقالت لنفسها :

– انه فى الواقع اظرف من كثيرين من الشبــان كان يمكن ان اتزوج بهم ..

– ان نساء اللاند فى الواقع يتفوقن كثيرا على رجالها الذين يعيشون فيما بينهم لا يختلطون بغيرهم . لقد استولت اللاند على افئدتهم وحينما ارتحلوا فهم يعيشون فيها بافكارهم . وليس من لهو يحلو لهم الا ماتجود به عليــهم . انهم يعتبرون من الخيــانة

لارضهم ومن الجحد لها أن يفقــدوا الشبه بينهم وبين مزارعيهم وان يتكلموا بغير لهجتهم العامية وان يقلعــوا عن سلوكهم الجاف واسلوبهم الوحشى فى الحياة الم يكن برنار يخفى تحت مظهــره القاسى نوعا من طيبة القلب ولين العريكة ؟ لقد قال المزارعون عندما اشرف على الموت :

– لن يوجد من بعده سيد نبيل فى هذا البلد !

نعم . طيبة القلب مع قدر كبير من اعتــدال الذهن وسلامة الطوية . انه لايتكلم قط عن شىء لا يعرفه فهو يعــلم قدر نفسه وحدودها . لم يكن فى مراهقته دميما كل الدمامــة هــذا الفتى الحيى المنصرف الى مطاردة الارانب البرية فى الاحراش اكثــر من انصرافه الى مطاردة الفتيات الحسان .

لم يكن هو الذى قفز الى مخيلة تيريز المسبلة العينين المستندة براسها الى زجاج نافذة القطار . لا . لم يكن هو ممتطيا دراجته فى الصباح الباكر على الطريق الموصل من سانت كلير الى ارجلوز فى حوالى الساعة التاسعة قبل ان يصل قيظ الصيف الى ذروته . لا . لم يكن الخطيب الموعود المنصرف عنها ، ولكن اخته الصغيرة آن وقد التهب وجهها نارا وانتشرت الخنافس تلمع بين اشجار الصنوبر وبدات جمرات اللاند تتقــد تحت زرقة السماء بينما ارتفعت ملايين الذباب من الاغصان العالية – هاهى العمة كلارا تقول لآن :

– ضمى معطفك قبل الدخول الى الصالون .. انه فى برودة الثلاجة ... ولن تشربى قبل ان يجف عرقك ... ياصغيرتى ...

– آن تحاول عبثا ان تصرخ بعبــارات التحية للمراة الصماء وتيريز تقول لها :

– لاتبحى صوتك يا عزيزتى ، انها تفهم كل مايقال لهــا من الشفاه ...

ولكن آن تظل تحاول وهى تطبع على فمهــا الصغير كلماتها فى التواءات واشكال عجيبة . العمة كلارا ترسل الكلمات على عواهنها وتجيب بكل ما يتراءى لها الى ان ينتهى الامر بالصديقتــين الى الفرار بعيدا لتضحكا ملء شدقيهما

أخذت تيريز تستعيد ، وهى على مقعدها فى هذا القطار المظلم ، تلك الايام الصافية من حياتها . انها ايام صافية حقا ولو لم يكن ينيرها غير شعاع ضئيل من السعادة المبهمة . لم تكن تدرى فى ذلك الوقت ان هذا الهناء المشوب بالكدر هو كل ماقدر لها أن تحصل عليه فى هذا العالم . لم يكن ينبهها شىء الى ان نصيبها من الدنيا انما هو هذا الصالون المعتم فى وسط الصيف القادح على هذا المقعد المكسو بالحرير الاحمر بالقرب من آن التى اخذت تقلب صفحات مجموعة من الصور فردتها فوق ركبتيها المضمومتين . من أين لها هذه السعادة ؟ هل تشترك آن مع تيريز فى ناحية واحدة من نواحى الذوق والمزاج ؟ ان آن تكره القراءة ولا تميل الا الى أشغال الحياكة والثرثرة الجوفاء والضحك . لم يكن لها رأى تبديه فى اى شىء ، بينما كانت تيريز تلتهم فى نهم روايات بول دى كوك وكتب « أحاديث يوم الاثنين » و « تاريخ الحكم القنصلى » وكل ماكانت تعثر عليه راكدا فى جوف خزانات هذا البيت الريفى العتيق . لا لم يكن بينهما من مزاج مشترك الا الرغبة فى البقاء معا طوال تلك الامسيات التى تحاصر فيها نيران السماء الرجال المتحصنين داخل عتمة البيوت . كم من مرة قامت آن الى النافذة تفتحها لترى هبطت حرارة الجو ولكن سرعان ماكان الضوء وهو فى قسوة المعدن المنصهر ، يغمر الحجرة فجاة فيبدو وكانه فيه لهب يشوى كل شىء فتعود مسرعة الى غلق النافذة والانزواء فى وكر الغرفة .

حتى عند الاصيل فى الوقت الذى تكتفى فيه الشمس بصبغ ما تحت اشجار الصنوبر باللون الاحمر والذى تظهر فيه آخر خنفاء جادة ساعية على مقربة من اديم الارض ، كانت حرارة الجو ماتزال متراكمة راكدة أسفل أشجار البلوط . فى تلك اللحظات كان يحلو للصديقتين ان تتمددا على حافة الحقل كما لو كانتا على شاطىء البحيرة بينما السحب المحملة بالعاصفة تعرض امام ناظريهما صورا متغيرة سابحة فى الفضاء . فما تكاد آن تشير لصديقتها الى تلك المراة المجنحة التى يرسمها السحاب فى الجو حتى تراها تيريز وقد تحولت الى حيوان عجيب متمدد .

كانتا تستطيعان فى شهر سبتمبر ان تخرجا بعد الغداء وان تنفذا الى داخل بلاد الظما ، فقد خلت منطقة ارجلوز من كل اثر لجداول الماء ، وعلى المرء ان يسعى طويلا بين الرمال قبل ان يصل الى المنابع التى تغذى المجرى الفحل المعروف باسم لاهور . انها تنتشر عديدة تلك المنابع ، وسط مساحات صغيرة من العشب عند جذور اشجار الكستناء . ان أرجل الفتاتين العارية كانت تفقد الشعور بالحرارة فى هذا الماء المثلج ، ولكنها سرعان ماتعود الى حالة السخونة بمجرد جفافها . هناك فى احد الاكواخ التى يأوى اليها الصيادون فى شهر اكتوبر عندما يخرجون لاقتناص الحمام البرى كانت الفتاتان تجلسان على نحو مافعلان فى ذلك الصالون المظلم . لم يكن يجرى بينهما اى حديث ، أو اية كلمة . كانت الدقائق تمر متتابعة فى هذه الجلسات البريئة من غير ان تصدر عن الفتاتين اية حركة ، وكان كلا منهما صياد ينظر الى الطير يقترب وقد رفع اصبعه بعلامة الصمت والسكوت . وكان يبدو لهما وهما فى تلك اللحظات أن اية حركة عارضة قد تقضى على هنائهما هذا المبهم العفيف . كانت آن هى دائما البادئة بتبديد هذا الصمت عندما تقف منتصبة وتتمطى . فهى متعجلة لقتل بعض القنابر فى وقت الفسق . اما تيريز فكانت تمقت هذه اللعبة ولو انها تتبع صديقتها فيها ، فهى لاترتوى من الوجود الى جوارها . كانت آن تأخذ البندقية عيار ٢٤ المعلقة على الحائط لانها عند اطلاقها لاترتد الى كتف الرامى . اما صديقتها فكانت تظل قابعة فوق الربوة العالية تنظر اليها وهى وسط الشوفان تصوب سلاحها نحو عين الشمس كانما تريد اطفاءها . كم من مرة سدت تيريز اذنيها بيديها بينما تنقطع فى زرقة السماء صرخة سكرى وتسرع الصائدة فتلتقط الطائر الجريح وتضغطه فى يدها بحرص وعناية ثم تخنقه وهى تمس بشفتيها ريشه الدافىء .

— ستاتين الى غدا ؟

— أوه ... لا ... ليس كل يوم ! ...

انها لم تكن تتمنى رؤيتها كل يوم . هذا قول معقول لا وجه للاعتراض عليه . وما من احتجاج عليه الا بدا فى نظر تيريز نفسها

شيئا غير مفهوم . أن آن تفضل الا تعود ثانية ، وما كان هناك من شيء ، بلا شك ، يحول بينها وبين العودة . ولكن هل من سبب يدعو الى تكرار اللقاء بينهما كل يوم ؟ كانت آن تقول انها تخشى أن ينتهى بهما الامر الى الخصام والتنافر .. فترد عليها تيريز قائلة :

– نعم ... نعم ... لا تجعلى من ذلك عليك فرضا .. عودى لرؤيتى كلما شئت .. حينما لا يكون لديك ماهو احلى من المجيء .

كانت الفتاة المراهقه تسرع على اثر ذلك فتمتطى دراجتها ثم تختفى فى الطريق الذى بدأ يتلفلف فى الظلام وهى ترسل الدقات من جرسها .

كانت تيريز تعود وحدها الى البيت بينما المزارعون يرسلون اليها تحياتهم من بعيد ، ويبتعد الاطفال عن طريقها فلا يقربونها . انها الساعة التى تنتشر فيها النعاج تحت اشجار البلوط ثم تفزع كلها معا جارية بينما الراعى يطلق صرخاته . كانت عمتها فى انتظارها على عتبة المنزل وككل عجوز صماء اندفعت تطلق الكلمات سيلا لاينقطع حتى لاتوجه اليها تيريز كلاما فلا تسمعه . ماهذا الشعور بالقلق الذى يساورها ؟ لم يكن بها ميل الى القراءة ولا ميل الى أى شيء . ها هى قد عادت تهيم على وجهها من جديد بينما عمتها تصرخ قائلة :

– لاتبتعدى .. ستعد المائدة حالا ..

كانت تعود الى حافة الطريق وقد خلا من كل اثر للحياة على مدى مرمى بصرها . الجرس يدق على باب المطبخ ربما اقتضى الامر هذا المساء ان يضاء المصباح . لم يكن الصمت القابع على الكون فى تلك اللحظات بأثقل على هذه الشابة العابسة منه على المرأة الصماء الجالسة بلا حراك مربعة ساعديها على المنضدة .

* * *

برنار .. برنار .. كيف ادخل بك الى هذا العالم المضطرب ؟ أنت الذى تنتمى الى الطائفة التى لا ترى ، طائفة البسطاء التى لا تهدأ ؟ .

قالت تيريز لنفسها : « لكنه سوف يقاطعنى عند كلماتى الاولى ويقول لى : لماذا تزوجت بى ؟ . اننى لم اكن أجرى وراءك » ..

حقا .. لماذا تزوجت به ؟ . انه لم يتعجل قط هذا الزواج .. تذكرت تيريز كيف كانت مدام فكتور دى لاتراف أم برنار ، تقول لكل من قابلها :

– كان فى استطاعته ان يتمهل .. ولكنها هى التى ارادت ذلك .. هى التى أرادت ذلك .. هى التى أرادت ذلك .. انها لسوء الحظ لا تتبع نفس المبادىء التى نتبعها ، فهى مثلا تدخن كجندى المطافىء . هذه نزوة بلا شك تريد بها ان يكون لها طابع خاص . ولكن لها طبيعة مستقيمة وفيها صراحة الذهب . اننا سرعان ما نتمكن من استعادتها الى الآراء السليمة .. حقا ، لسنا نرى كل شيء فى هذا الزواج باسما .. نعم .. هناك الجدة بيلاد .. هذا أمر اعرفه جيدا .. ولكنه مضى فى طى النسيان .. اليس كذلك ؟ . لا يكاد المرء ان يقول كانت هناك فضيحة .. لقد احكم الكتمان حولها سريعا .. هل تعتقد انت فى صحة قوانين الوراثة ؟ ان طريقة تفكير الأب نفسه فاسدة .. هذا شيء معروف .. ولكنه لم يعط ابنته الا كل مثل طيب .. انه قديس ملحد .. ثم انه طويل الباع واسع الحول .. ونحن فى حاجة الى الناس جميعا .. واخيرا هناك ما يدعو المرء الى ان يمر على بعض الاشياء مر الكرام .. ثم .. ولك أن تصدقنى اذا شئت .. انها اغنى منا .. امر غير معقول طبعا .. ولكنها الحقيقة .. وهى فوق ذلك كله تعبد برنار .. الأمر الذى يجعل كل شيء على ما يرام .

نعم .. لقد عبدته ، فما كان أيسر اليها من الوقوف هذا الموقف الذى لا يقتضيها كبير عناء ، اذ يكفيها فى الصالون فى ارجلوز او تحت أشجار البلوط على حافة الحقل ان ترفع نحوه عينيها وهى خبيرة بطريقة شحنهما ببراءة العشق . وكان جثو هذه الوالهة عند قدمى الفتى يملؤه غرورا من غير أن يثير لديه الدهشة . ولطالما قالت له أمه : « لا تلعب معها ، انها تقتل نفسها .. »

* * *

« لقد تزوجته لأنى ... » قالت تيريز لنفسها ذلك وهى مقطبة الجبين - وقد وضعت يدها على عينها واخذت تبحث فى ذاكرتها . هل كان الدافع لها هو تلك السعادة الصبيانية التى كانت تحدو بها

لأن تصبح زوجة لاخى صديقتها آن ؟ لا .. لقد كانت آن هى التى تشعر بالجانب الأكبر من هذه السعادة ، أما تيريز فلم يكن هذا الرباط يعنى شيئا كثيرا بالنسبة لها .. حقا ، هل يجدى الخجل من الحقيقة شيئا ؟. الم تكن الالفان من الهكتارات التى يمتلكها برنار شيئا هاما فى نظرها ؟ . كثيرا ما قالوا عنها : « ان الملكية تختلط دائما بدمها .. » ولطالما كانت تيريز ـ بعد الانتهاء من تناول وجبات الطعام الطويلة ، وفى الوقت الذى يتناول فيه الرجال كئوس الشراب ـ تبقى بينهم تستمع الى احاديثهم حول المزارعين واخشاب المناجم وعصارات اشجار الصنوبر وسوائل التربنتين .ان تقديرات الأملاك وحساباتها دائما تستهويها .. لا شك أن سيادتها على المساحات الشاسعة من الغابات كانت تبهرها .. » لقد كان هو الآخر يعشق اشجار الصنوبر التى املكها .. » بل لعل تيريز قد استجابت فى ذلك الى شعور آخر اكثر ابهاما هو الذى تحاول الآن أن تبرزه الى الضوء فى ذهنها . الم يكن ما تبحث عنه فى هذا الزواج ليس هو السيادة ، وليس هو التملك وانما هو الملجأ التى يحتويها ؟ . الم يكن الدافع الذى أسرع بها الى اتمامه هو الشعور بالرعب والفزع ؟ . لقد كانت فى طفولتها رصينة رزينة وكانت فى مراهقتها صبية محبة للبيت وشئونه ، ثم أحست بالحاجة الى سرعة الانتظام فى المركز المناسب لها واحتلال مكانها الدائم . لقد ارادت ان تؤمن نفسها من خطر لا تدرى ما هو . لم تظهر تيريز قط من قبل تعقلا مثل الذى اظهرته فى فترة خطوبتها . ألم تكن تستعد للاندماج ضمن كتلة عائلية ؟ . الم تكن تسعى الى الاستقرار ، الى سلوك طريق الجماعة المنظمة ، الى الخلاص والنجاة ؟ .

* * *

ذلك الربيع الذى عقدت فيه خطبتهما ـ كانا يسيران هى وهو فى طريق الرمال الذاهب من ارجلوز الى فلميجا . اوراق البلوط الميتة معلقة بالأغصان كأنها بقع تلوث صفحة السماء الزرقاء . الأرض مكتسبة رداء من السرخس الجاف وقد برزت فى ثناياه هنا وهناك سيقان جديدة فى لونها الاخضر الليمونى . قال برنار :

« تنبهى لسيجارتك ... قد تحدث حريقا آخر ... لم تبق فى المنطقة مياه ... » سألته تيريز :

ـ هل صحيح ان السرخس يحتوى على حمض السنهدريك ؟ .

لم يكن برنار يدرى هل يحتوى هذا النبات على ما يكفى من السم لقتل انسان ، ولكنه قال لها فى رقة :

ـ هل بك شوق الى الموت ؟..

ضحكت وهو يقول لها انه يريدها ان تصبح اكثر بساطة . اغلقت تيريز عينيها وتركت راسها بين يديه الكبيرتين يطوقها ويهمس فى اذنها :

ـ ما زال هذا الراس عامرا ببعض الآراء الفاسدة ...

قالت :

ـ عليك انت ان تزيلها يا برنار ..!

وقفا يشاهدان البنائين وهم يضيفون حجرة الى مبانى مزرعة فلميجا . ان أصحاب المزرعة ، المقيمين فى بوردو ، ينوون تخصيص هذه الحجرة الجديدة لاقامة أصغر ابنائهم المصاب بذات الرئة بعد ان ماتت ابنتهم بهذا الداء نفسه . عائلة ازيفيدو هذه ... لم يكن برنار يشعر نحوها الا بالاحتقار والازدراء .

انهم يقسمون اغلظ الايمان على انهم ليسوا من أصل يهودى ... ولكن يكفى النظر اليهم ... وهم فوق ذلك مصابون بمرض السل ... وبكل الامراض ...

تيريز هادئة لا تتكلم . تذكرت أن آن ستعود قريبا من دين سان سبستيان لعقد قرانها . ستصحب ابن ديجلهيم الى الكنيسة وتجمع من تبرعات المصلين . لقد كتبت الى تيريز تطلب منها موافاتها « برجوع البريد » بوصف للثياب التى سوف ترتديها فى حفلة زفافها فتيات الشرف الاخريات . وتسأل :

ـ الا يمكن أن تبعثى لى بعينات من القماش ؟ أليس من مصلحتهن جميعا ان يخترن الوانا متناسقة ..؟

لم يعرف قلب تيريز من قبل هدوءا مثل هـــذا الهدوء أو ما كانت تظنه هدوءا ، وهو فى حقيقته نعاس الحية الكامنه فى صدرها أو لعله بياتها ...

- ٤ -

يوم الزفاف الخانق فى كنيسة سانت كلير الضيقة حيث تعلو ثرثرة السيدات على صوت الارغن المتهالك ، وحيث تطغى عطورهن على عبيق البخور . فى ذلك اليوم أحست تيريز بالضياع . لقد دخلت بلا شعور فى القفص ، تلك الطفلة البائسة ، ولم تفق من غفلتها الا على فرقعة الباب الثقيل وهو يغلق من خلفهـــا . لم يتغير شىء فى حياتها ولكنها أحست انها لن تستطيع بعد اليوم الانفراد بنفســها الضائعة . فى مجاهل الأسرة الكثيفة ، كان عليها ان تخفى عواطفها فى صدرها جاعلة من هذه العواطف ما يشبه النار المندســة تحت الأعشاب تشعل شجرة من اشجار الصنوبر ثم شجرة أخرى ثم تنتشر من مكان الى آخر فتحيل الغابة الى شعلات متقدة . ليس بين وجوه هؤلاء القوم وجه تستطيع ان تريح عينيها بالنظر اليــه غير وجه آن . لكن السرور الصبيانى الذى غمر هذه الشـابة عزلها عن تيريز . أى سرور هذا ..؟ هل تجهل آن انهما منذ تلك الليلة ستفترقان عن بعضهما بلا عودة ؟ ولن تقتصر الفرقة بينهما على المكان فقط ، خصوصا وان تيريز كانت فى لحظة التألم لما سوف يصيب جسدها البرىء من تلوث لن تمحى آثاره ابدا . ستبقى آن على ذلك الشاطىء الذى تنتظر فيه المخلوقات الطاهرات بينما تذوب تيريز وسط قطيع اللواتى قضى منهن الوطر . تذكرت انها ، وهى فى بهو الكنيسة تميل على ذلك الوجه الضاحك الصغير تقبله وقد ارتفع نحوها ، لاحظت فجأة الفراغ الذى طالما حلقت من حوله عوالم واسعة من الالم المبهم والسرور الساذج . اكتشفت فى مدى بضع ثوان الفارق اللانهائى بين القوى الغامضة التى تعتمل فى قلبها وبين ذلك الوجه الحلو الملطخ بالمساحيق .

ظل القوم زمنا طويلا فى سانت كلير وما جاورها لا حديث لهم ؟ بعد ذلك اليوم ، الا عن هـــذا الزفاف وعن الوليمة العـامرة التى

اقيمت بمناسبته واكل فيها وشرب اكثر من مائة مزارع تحت اشجار البلوط . حديثهم لا يخلو قط من ذكر العروس التى هى « بلا شك ليست جميلة كل الجمال ولكنها السحر بعينه » . لقد بدت للجميع فى ذلك اليوم دميمة بل وقبيحـة الى أقصى حـدود القبح .

لم تكن على ما عهدناه فيها من ملامح ... لقـد كانت شخصا آخر ...

هكذا قال القوم وكل ما رأوه منها هو الاختـلاف فى مظهرها الذى تعودوه ، وقد نسبوا ذلك الى ملابس الزفاف البيضاء والى حرارة الجو . لقد غاب عنهم وجهها الحقيقى .

فى مساء يوم الزفاف الذى اختلطت فيـه العادات الريفيـة بالتقاليد الحضرية اقبل الناس جماعات تزهو وسطها ثياب الفتيات بالوانها الفاقعة .

اضطرت السيارة التى استقلها العروسان الى الابطاء من سرعتها وسارت وسط الهتافات والتهليلات . انطلقا بعد ذلك على الطريق المكسو بزهور اشجار السنط وتقدما العربات المتمايلة التى يقودها اجلاف سكارى . تذكرت تيريز الليلة التى تلت ذلك اليوم فتمتمت قائلة : « لقد كان امرا بشعا .. » ثم استدركت : « لا .. ليس بشعا الى هذا الحد .. » . تساءلت هل تألمت كثيرا فى أثناء تلك الرحلة التى قاما بها فى منطقة البحيرات الايطالية ؟ . كلا .. كلا .. لقد تسلت بلعبة ابتدعتها ، هى عدم البوح باحساساتها وكتمـان مشاعرها . ربما كان من السهل تمثيل الأحاسيس مع الخطيب وخداعه بها . ولكن مع الزوج كان الأمر يختلف !. ان الـكلمات الكاذبة يستطيع كل انسان ان يقولها ، ولكن اكاذيب الجسد تتطلب علما ودراية . لن يستطيع انسان أن يخادع فى اظهار الرغبة والسرور والارهاق الهنىء ويتقن الخداع . لقد عرفت تيريز كيف تخضع جسدها لهذا الخداع وتذوقت كل ما فى هذا التظاهر والتمثيل من لذة مريرة . عالم مجهول تتصادم فيه الاحساسات ورجل يدفعها الى الدخول فيه دفعا . مخيلتها توحى لها بأنها قد تجد هى الاخرى فى هذا العالم بصيصا من الهناء . ولكن اى هناء هذا .. ؟ انه يشبه

المنظر الطبيعى الذى تاهت معالمه تحت مياه المطر المنهمر وقد وقف المشاهد أمامه يتأمله ويتخيل ما يكون عليه فى ضوء الشمس الساطعة .. هكذا اكتشفت تيريز اللذة .

برنار ! .. هذا الصبى ذو النظرة القاحلة ! .. انه لا يكف عن الشكوى من اختلاف أرقام اللوحات عن الأرقام الواردة فى دليل المتحف ! . انه يبدى السرور كله لتمكنه من رؤية كل ما يجب رؤيته فى اقل وقت مستطاع ! . يا له من غر يسهل خداعه وتضليله ! انه حبيس سعادته كتلك الخنازير الصغيرة اللطيفة التى يعجب المرء منظرها من خلف السياج وهى تخوض سعيدة هانئة وسط معلفها . وقد كنت انا هذا المعلف ! . تذكرت تيريز امارات العجلة والانشغال والجد التى كانت تبدو عليه ، ثم تذكرت كيف كان متزنا خبيرا . سألته يوما فى حيرة :

ـ هل تظن حقا ان ذلك عمل حكيم ؟.

فضحك وطمأنها . من اين له هذا العلم بتصنيف كل ما يتعلق بشئون الجسد ؟ من اين جاءته تلك الخبرة فى التمييز بين اساليب الرجل الشريف فى الحب وبين اساليب الرجل المريض ؟ لم يكن فى هذه الامور يعرف التردد قط . لقد حدث فى احدى الامسيات وهما فى باريس حيث توقفا لفترة فى طريق العودة ان خرج محتجا ثائرا من احد الملاهى الليلة وقد نال منه الاشمئزاز من المناظر التى تعرض فيه . قال :

ـ أهذا كل ما يعرض على الاجانب هنا ؟.. يا للعار ...! انهم يحكمون علينا بما يرونه من هذه المناظر الفاضحة ...!

وقد شعرت تيريز بالاعجاب يغمرها لان هذا الرجل العف الغيور هو الذى سوف يقهرها بعد مضى ساعة او بعض ساعة على معاناة ما برع فى اختراعه من اساليب الظلام .

ـ مسكين برنار ... انه ليس اسوأ من غيره ...! ولكن الشهوة تحيل الشخص الذى يقربنا الى مسخ ليس بينه وبين الانسان شبه وما من شىء أقدر على التفريق بيننا وبين شريكنا فى المتعة من النشوة التى تظهر عليه . لطالما رأيت برنار وهو يغوص فى اللذة بينما كنت انا كجثة هامدة اتظاهر بالموت كما لو كنت اخشى

ان يحاول هذا الرجل المجنون المصروع ان يخنقنى اذا ما بدت منى حركة . وكثيرا ما كان يحدث وهو على حافة نشوته القصوى ان يكتشف فجاة وحدته وانفراده فتنقطع فى الحال جهوده المتشبثة الكئيبة وعندما يكر الى عائدا يجدنى كما لو كنت امراة لفظها البحر من جوفه فظلت على شاطئه غاصة على اسنانها باردة .

وسالة واحدة من آن . كم تكره هذه الصغيرة الكتابة . ما من سطر فى هذه الرسالة الا واعجبت به تيريز . قلما تعرب الرسائل عن عواطفنا على حقيقتها ، قلما تصورها بنفس الاحساس الذى تحدثه فى نفوسنا والذى يحمل على قراءتها فى سرور . تشكو آن من انها لم تعد تستطيع الذهاب الى فلميجا منذ ان سكنها ابن ازيفيدو . لقد نظرت على البعد الى مقعده الطويل الممدد وسط نباتات السرخس . ان منظر المصدورين يملؤها رعبا .

* * *

كثيرا ما قرات تيريز هذا الخطاب من غير ان تتوقع قدوم غيره لذلك كانت دهشتها عظيمة ، فى صبيحة اليوم التالى لتلك الامسية التى قطعها برنار فجاة فى الملهى الليلى ، عندما تعرفت على خط آن فوق خطابات ثلاثة جاء بها البريد . اشارات عديدة الى « شبابيك البريد » انتهت بهذه الرسائل الى باريس . ذلك انهما تخطيا متعجلين مراحل عديدة من الرحلة لسرعة الوصول « الى وكرهما » كما يقول برنار . لكنهما فى الحقيقة تعجلا العودة لضيقهما بالبقاء معا . لقد كان برنار . يذوى مللا لبعده عن بنادقه وعن كلابه وعن الحانة التى يتميز فيها شراب البيكون الرمانى بمذاقه لا يلقاه فى اى مكان آخر ثم وجود هذه المراة الى جواره باردة ساخرة لا تفصح قط عن سعادتها ولا تحب التحدث فيما يهمه من الامور . اما تيريز فكانت تتعجل العودة الى سانت كلير لانها كانت كالمنفية التى ملت البقاء فى السجن المؤقت وتاقت نفسها الى رؤية الجزيرة المنعزلة التى قدر لها ان تقضى فيها ما تبقى لها من ايام الحياة . تفحصت تيريز فى عناية التواريخ المطبوعة على اغلفة الرسائل الثلاث ، وما كادت تضع اقدامها حتى أطلق برنار زفرة مصحوبة ببضع كلمات لم تفهم لها معنى . لقد كانت النافذة

مفتوحة وسيارات الاوتوبيس فى ذلك المفترق تنتقل سريعة محدثة ضجيجا يصم الآذان . توقف عن حلاقة ذقنه ليقرأ خطابا جاءه من أمه . مازالت تيريز تذكر حتى الآن صدريته المصنوعة من النسيج الرخو وذراعيه العاريتين المنتفختين بالعضلات وجلد جسمه الشاحب . تذكرت فجأة اللون الاحمر القانى المنتشر على عنقه وفى وجهه . لقد كانت الحرارة فى صبيحة ذلك اليوم من ايام يولية تفوح منها رائحة الكبريت ، وكان ضوء الشمس المليء بالدخان خارج الشرفة يضفى على واجهات المبانى الجامدة مزيدا من القذارة والوسخ . اقترب من تيريز وهو يصرخ :

— اما هذا فشيء فظيع ... تصورى ... صديقتك آن ... انها تتعدى الحدود ... من يقول ان اختى الصغيرة ...

واذ نظرت اليه تيريز مستفهمة قال :

— هل تصدقين انها مغرمة بابن ازيفيدو ؟ نعم انها تحبه ... هذا المصدور الذى من اجله اجريت التوسيعات فى فلميجا ... نعم ، نعم ... ان الامر يبدو جد خطير ... تقول انها تنتظر الى ان تبلغ سن الرشد ... خطاب امى يقول انها جنت جنونا تاما .! ليت عائلة ديجلهيم لا تعلم شيئا من ذلك ، والا فقد يحجم ابنهم الشاب عن التقدم بطلبه ... هل وصلتك رسائل منها ؟ سنعلم شيئا عن ذلك ... هيا اسرعى الى فضها كلها ...

— بل اريد ان اقراها بترتيبها . على انى لن استطيع اطلاعك عليها .

من هذا الرد القاطع عرف برنار فى زوجته طبعها وطبيعتها ، انها تشيع الاضطراب فى كل شيء . انما المهم فى نظره هو ان تعيد الفتاة الصغيرة الى رشدها وعقلها .

— ان الاسرة تعتمد عليك فى ذلك ... ان لك سلطانا عليها ... حقا ، حقا ... انهم ينتظرون عودتك على احر من الجمر ، ففيها نجاتهم جميعا ...

اتفقنا على ان تقوم تيريز لترتدى ملابسها بينما يذهب برنار

لارسال برقية ولحجز مقعدين لهما فى قطار الجنوب السريع . قال لها ان فى استطاعتها ان تبدأ فى اعداد الحقائب للسفر ثم سألها

— ما الذى تنتظرينه لتقرئى خطابات الصغيرة ؟

— ان تغادر هذا المكان .

* * *

انقضى وقت طويل بعد ان اغلق برنار باب الغرفة . تيريز مستلقية فى رقدتها تدخن السجائر وتنظر ساهمة الى الحروف الذهبية الكبيرة التى علاها التراب على حائط الشرفة المواجهة . فضت الغلاف الاول . لا ، لا ... لم تكن تلك البلهاء الصغيرة العزيزة ، لا يمكن ان تكون تلك الفتاة البريئة التى تلقت فى الدير تربية ذهنية محدودة ، هى التى كتبت هذه الكلمات النارية ... لا يمكن ان ينبع من ذلك القلب الجاف — فقد كان قلب آن جافا ولعل تيريز تعرف ذلك — هذا اللحن الحلو الذى يشبه نشيد الاناشيد ، هذه الآهة الطويلة السعيدة المنبعثة من المراة التى اكتملت لذتها ، من الجسم الذى يذوب سعادة لدى اللمسة الاولى .

— ... عندما قابلته لم يكن فى استطاعتى ان اتصور انه هو . لقد كان يلهو بالجرى مع الكلب وهو يطلق الصرخات . كيف كان بوسعى ان اظنه هذا المريض المصاب اصابة جسيمة ... انه ليس مريضا وانما هى احتياطات يتخذونها بسبب الكوارث التى حلت بعائلته . هو ليس بالهزيل وانما هو نحيف فقط ... ثم هو معود على التدليل والملاطفة ... انى تغيرت كثيرا ولن تعرفيننى الآن .. تصورى ... انى اذهب بنفسى لاحضار السترة له عندما تهبط الحرارة ويبرد الجو ..

* * *

لو دخل عليها برنار فى تلك اللحظة لرأى ان هذه المراة الجالسة على السرير ليست هى زوجته وانما هى انسان لا يعرفه ، مخلوقة غريبة عنه لا اسم لها . القت بسيجارتها ومزقت الظرف الثانى .

« ... سأتذرع بالصبر طوال المدة اللازمة ... ما من مقاومة تخيفنى .. وان حبيبى لا يدرى شيئا من ذلك ... انهم يحجزوننى

فى سانت كلير ولكن ارجلوز ليست بعيدة . لا يصعب علينا اللقاء جان وانا . هل تذكرين برج الحمام البرى ؟ لقد اخترت انت يا عزيزتى من قبل المكان الذى قدر لى ان اعرف فيه اللذة ...لا ... لا تظنى بنا الظنون ، اننا لا نرتكب اثما ... هو رقيق كل الرقة . قلما تتصورين شابا من هذا الطراز ... لقد درس طويلا وقرأ كثيرا مثلك انت . ولكن المعرفة الواسعة لا تضايقنى اذا توفرت لشاب ، لهذا لم أفكر ابدا فى مداعبته بالتهكم عليه من أجل ذلك . كم اتمنى ان اكون على مثل ما انت عليه من علم ودراية . وقد اضحى بكل شىء لاكون مثلك . عزيزتى ، ما هى تلك السعادة التى توفرت لك انت ولم اعرفها انا بعد والتى تجعل من مجرد القرب شيئا لذيذا كل هذه اللذة ؟ عندما اكون الى جواره ، فى برج الحمام الذى كنت تصرين على ان نأتى اليه بغذائنا ، اشعر بالسعادة تملأنى كأنها شىء استطيع لمسه . اقول لنفسى ان هناك على الرغم من ذلك هناء أبعد حدودا من هذا الهناء . وبعد ان يفارقنى جان ، وقد شحب وجهه ، تظل ذكرى مداعباتنا ماثلة فى قلبى ، واعيش فى انتظار ما سوف يأتى به الغد . انى اصم اذنى عن التضرعات والسباب التى يواجهنى بها اهلى ، اولئك القوم الذين لا يفهمون شيئا ... الذين لم يتذوقوا حلاوة ذلك ... عزيزتى، اغفرى لى . انى احدثك عن هذه السعادة كما لو كنت تجهلينها انت ايضا . على انى لست سوى مبتدئة بالنسبة اليك . لذلك ارانى على يقين على انك ستقفين الى جانبنا ضد اولئك الذين يريدون بنا شرا ...

فضت تيريز الغلاف الثالث . لم تجد غير كلمات قليلة كتبت على عجل :

ـ احضرى يا عزيزتى ، لقد فرقوا بيننا . انهم يراقبوننى عن كثب مراقبة شديدة . يظنون انك ستنضمين الى جانبهم . قلت لهم انى أقبل حكمك . سأشرح لك كل شىء عند قدومك . انه ليس مريضا . انا سعيدة واتألم . انا سعيدة لانى اتألم من اجله . انى احب هذا الالم وارى فيه دلالة على الحب الذى يكنه لى ...

***

لم تذهب تيريز فى القراءة الى ابعد من ذلك . لاحظت وهى

تعيد الورقات الى أغلفتها . ان بداخل احداها صورة فوتوغرافية لم تتنبه الى وجودها من قبل . اقتربت من النافذة وتطلعت بنظرها الى هذا الوجه . شاب اكتسى راسه بشعره كثيف فبدا كبير الحجم . عرفت تيريز فى الصورة المكان الذى التقطت فيه . انه ذلك التل الذى طالما وقف عليه جان ازيفيدو منتصبا كأنه تمثال داود وفى الخلف ارض جرداء ترعى فيها بعض النعاج . انه يحمل سترته على ذراعه وقد كشف قميصه قليلا عن صدره ليتلقى ـ كما تقول آن ـ « اخر اللمسات المباحة » . رفعت تيريز عينها ونظرت مشدوهة الى وجهها فى المرآة . شعرت بحاجة الى بعض الجهد لتفك ما بين اسنانها المنقبضة ولتبتلع ريقها . دلكت صدغيها وجبهتها بماء الكولونيا . قالت تخاطب نفسها :

ـ انها تذوق هذه السعادة ...! كيف بى انا ...؟ انا ... لم لا اذوقها انا ايضا ...؟

القت بالصورة على المنضدة فاذا بدبوس يلمع بالقرب منها .

ـ لقد فعلت أنا هذا ... انا التى فعلت هذا ...

كررت تيريز هذه الكلمات وهى فى مقعدها داخل هذا القطار المترنح وقد اندفع مسرعا فوق منحدر من القضبان . ثم قالت لنفسها « منذ سنتين مضتا ، فى غرفة ذلك الفندق ، امسكت بالدبوس وثقبت به صورة هذا الشاب فى موضع القلب تماما . لم أثقبه بعنف ، كلا ، ولكن فى هدوء كما لو كان ذلك عملا عاديا . ثم ذهبت الى دورة المياه حيث القيت بالصورة وبها هذا الثقب وشددت فوقها سيل الماء الطارد .

***

عندما عاد برنار رآها هادئة كأنها شخص اطال التفكير وقرر لنفسه السلوك الذى يسلكه . عاب عليها كثرة التدخين . انها بذلك تسمم نفسها . ان رايها هو الا تعلق اهمية قصوى على مثل تلك النزوات من فتاة صغيرة . تعهدت بان تنير لها الامور ... رحب برنار بالكلمات المطمئنة التى قالتها له تيريز . كان سروره بالغا لشعوره بوجود تذاكر العودة فى جيبه كما كان ارتياحه ظاهرا لان اهله قد بدأوا يلتمسون العون من زوجته . قال انه مصمم ،

أيا كان الثمن ، على تناول آخر غداء لهما فى هذه الرحلة فى احد مطاعم الغابة . ظل يثرثر وهما فى السيارة التى اكتراها لتنقلهما الى المطعم . تكلم عن مشروعاته فى افتتاح موسم الصيد . قال انه يتوق الى تجربة ذلك الكلب الذى يدربه باليون من اجله وان امه كتبت له تقول ان فرسه لم تعد تعرج بعد ان كوى مكان الداء فيها بالنار ... عدد الآكلين مازال قليلا فى ذلك المطعم الذى بهرهما بكثرة ما فيه من خدم . ظلت تيريز تذكر تلك الرائحة التى عبقت المكان ، رائحة زهور « العطر شاه » تخالطها رائحة الطبخ . لم يكن برنار قد ذاق من قبل نبيذ الراين ، فاستاء لان القوم لا يقدمونه كل يوم . حجب برنار بجسمه الضخم عن تيريز رؤية قاعة المطعم ولكنها من خلف زجاج النوافذ شاهدت السيارات تمرق وتقف فلا تسمع لها صوتا . انها تعرف ان ذلك الشىء النابض المتحرك بالقرب من اذنى برنار هو عضلة الصدغى . ما ان شرب برنار الجرعات الاولى حتى التهب وجهه بحمرة . ياله من شاب ريفى قوى جميل لا عيب فيه الا افتقاره طوال هذه الاسابيع الى الفضاء الواسع ينفق فيه ما تجمع فى جسمه من طاقات يومية ولدها الطعام والشراب . انها لا تمقته ولكن ما اشد رغبتها فى ان تبقى بمفردها لتفكر فيما ينتابها من الم ، ولتتحسس موقع هذا الألم من نفسها ! ان كل ما تتمناه هو الا يكون معها فى ذلك المكان ، والا تضطر الى تناول الاكل المفروض وافتعال الابتسامة المتكلفة ، والا تشغل بالها بضرورة رسم الملامح الكاذبة على وجهها واظهار النظرة الخافتة فى عينيها ، وان تستطيع تركيز ذهنها حرا طليقا على هذا اليأس الخفى الذى يملأ قلبها . تذكرت آن فقالت لنفسها : انها مخلوقة تنطلق بعيدا عن الجزيرة القاحلة التى كنت تعتقدين انها سوف تعيش فيها الى جوارك حتى النهاية ، انها تجتاز الهاوية التى تفصل بينك وبين الآخرين وتنضم الى هؤلاء الآخرين . انها تنتقل من هذا الكوكب الى كوكب آخر ... لا ... هل انتقل قط كائن حى من كوكب آخر ؟ لقد انتسبت آن دائما الى زمرة البسطاء من بنى البشر . لم تكن الا شبحا طالما نظرت تيريز اليها فى الايام الخوالى ، ايام اجازاتهما المنعزلة ، وهى تتكىء براسها على ركبتيها نائمة . لا . انها لم تعرف ابدا آن دى لاتراف الحقيقة ، لم تعرف

تلك التى تسعى اليوم الى لقاء جان ازيفيدو فى برج الحمام المهجور بين سانت كلير وارجلوز .

قال لها برنار :

— ماذا بك ؟ الا تأكلين ؟... يجب الا تتركى لهم شيئا من الطعام ، انها خسارة نظرا لما يتقاضونه فيه من اثمان غالية ... هل هى حرارة الجو ؟ ارجو الا يصيبك الاغماء ، ما لم يكن ذلك من اثر الوحام ... الذى بدأ ...

ابتسمت تيريز . ابتسم فمها وحده . قالت انها تفكر فى تلك المغامرة التى اندفعت فيها آن . كانت بها حاجة لان تتكلم عن آن . وبينما برنار يعلن اطمئنانه التام مادامت قد تكلفت هى بالامر سألته المراة الشابة عن السبب الذى من اجله يبدى اهله معارضتهم فى هذا الزواج . ظن برنار انها انما تهزأ منه ورجاها الا تسترسل فى آرائها المتناقضة ، قال :

— اولا انت تعلمين جيدا ان هؤلاء القوم هم من اليهود . لقد عرفت امى الجد ازيفيدو الذى رفض ان يتلقى سر العماد ...

اعترضت تيريز قائلة ان أعرق الاسماء فى مدينة بوردو كلها هى اسماء اولئك اليهود القادمين اصلا من البرتغال . ثم اضافت :

— لقد كان آل ازيفيدو فى اعلى مراتب المجتمع فى الوقت الذى كان فيه اجدادنا ، هؤلاء الرعاة البؤساء ، يرتعدون من الحمى على شواطىء مستنقعاتهم .

— يا تيريز ، لا تكابرى لمجرد الرغبة فى المناقشة . ان اليهود كلهم سواء ... ثم ان هذه العائلة ليس من افرادها الا كل مريض ، كلهم مصدورين حتى نخاع عظامهم . الكل يعلم ذلك .

اشعلت تيريز سيجارة بحركة طالما اشمأز لها برنار وقالت :

— هل لك ان تذكر لى مم مات جدك وأبو جدك ؟ ألم تعن انت ، عند زواجك منى ، بالتحرى عن المرض الذى ماتت به امى ... ؟ هل تعتقد اننا لو بحثنا بين اسلافنا لما عثرنا على ما يكفى من مرضى السل والزهرى لتسميم العالم بأسره ؟

— انك تغالين كثيرا يا تيريز . اسمحى لى ان اقول ، ولو على سبيل المزاح والتفاخر : ليس لك ان تمسى امجاد العائلة !

انتفخ صدر برنار ضيقا وهو يريد ان يبدو متعاليا امام تيريز من غير ان يثير لديها السخرية . ولكنها عادت تقول فى اصرار :

– ان عائلاتنا تضحكنى بما تبديه من حذر سخيف . هذا الرعب من العاهات الظاهرة لا يعادله الا التعامى عن عاهات اخرى اكثر من هذه عددا ولكنها خفية ... انت نفسك ، انك تستعمل عبارة الامراض السرية ... أليس كذلك ؟.. هلا اعترفت بان اخطر الامراض على الجنس هى بطبيعة تعريفها ادواء سرية...؟ هذه حقيقة لا تتنبه اليها عائلاتنا ابدا بينما هى تتفاهم جيدا فيما بينها على دفن كل ما علق بها من ادران واقذار . لولا الخدم لما عرف قط شيء من ذلك . هناك لحسن الحظ الخدم ...!

– لن ارد عليك . عندما تندفعين هكذا ، يكون من الافضل الانتظار الى أن تنتهى الثورة . ان ثوراتك معى لا تحدث الا ضررا قليلا . فانا اعرف انك تلهين . اما هناك فى المنزل فالامر على خلاف ذلك . انت تعرفين ان النتائج لن تكون طيبة . نحن لا نتهاون فى اى امر يتعلق بالعائلة ...

العائلة ...! تركت تيريز سيجارتها تنطفىء وقد تسمرت نظرتها : انها ترى فى مخيلتها هذا القفص المحاط بسياج لا عدد له من الاحياء ، هذا القفص المبطن بالاذان والعيون والذى قضى عليها ان تعيش فى داخله جامدة لا تتحرك وقد جلست القرفصاء واضعة ذقنها بين ركبتيها ضامة ساقيها بذراعيها فى انتظار الموت البطىء.

قال لها برنار :

– هيا يا تيريز ، بددى هذا العبوس . لو نظرت لوجهك الآن ابتسمت واعادت الى وجهها قناعه الأول وقالت :

– اننى كنت الهو ... يالك من ساذج يا عزيزى ...

ولكنها حينما جلست معه فى السيارة لتعود بهما الى الفندق واقترب منها دفعته بيدها وابعدته عنها .

فى تلك الليلة الأخيرة التى سبقت عودتهما الى البلدة ذهبا الى الفراش فى الساعة التاسعة . تناولت تيريز حبة من دواء منوم ولكنها انتظرت النوم طويلا فلم يأت اليها . فى لحظة ما غلبها النعاس واذا ببرنار يتقلب فى نومه وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة. شعرت بهذا الجسم الكبير الملتهب يلاصق جسمها فابعدته عنها

ارادت الا تعانى بعد ذلك من مجاورة هذه النار لها فتمددت على الحافة البعيدة للفراش . بعد بضع دقائق تدحرج الجسم الكبير مرة اخرى نحوها كما لو كان الجسد فيه ما يزال حيا برغم غياب العقل منه ، وكما لو كان يبحث حتى فى نومه عن الفريسة التى اعتاد افتراسها . للمرة الثانية مدت يدها فى عنف شديد ومن غير ان تفلح فى ايقاظه ابعدته عنها . آه ...! لو امكنها ان تبعده عنها بعدا حقيقيا والى الابد ...! لو امكنها ان تلقى به خارج الفراش، ان تقذف به الى الظلمات ...!

ابواق السيارات فى تلك الليلة من ليالى باريس تتجاوب فيما بينها كما تتجاوب فى ارجلوز الكلاب والديكة عندما يزهر القمر ما من نسمة طرية تنبعث من الطريق . أضاءت تيريز مصباحا واتكات على الوسادة تنظر الى هذا الرجل الممدد بلا حراك الى جوارها ، هذا الرجل ذى السبعة والعشرين عاما وقد ازاح عن جسمه الغطاء . ان انفاسه لا تكاد تسمع وقد انتشر شعره الكثيف يغطى جبينه الذى مازال محتفظا بطهره ويكسو صدغه الذى خلا من التجاعيد ها هو ذا نائم كانه آدم وقد تعرى عن ثيابه وتجرد من سلاحه ، نوم عميق كانه النوم الأبدى . القت المراة غطاءها فوق هذا الجسم الممدد الى جوارها ونهضت تبحث عن الرسائل التى لم تتم قراءتها ثم اقتربت من المصباح :

– ... لو قال لى ان اتبعه لتركت كل شيء من غير أن التفت براسى . اننا نقف على الحافة .. الحافة الأخيرة للذة القصوى.. ولكن هذا التوقف بارادته هو لا بمقاومتى انا .. ولعل الأصح ان اقول انه هو المقاوم وانا الراغبة فى الوصول الى تلك النهايات المجهولة التى طالما ذكرها لى قائلا ان مجرد الاقتراب منها يسمو على اللذات جميعا وانه يجب علينا ان نظل بمنأى عنها . انه فخور باستطاعته التوقف عند هذه المنحدرات التى يقول عنها ، ان الآخرين اذا ما سلكوها انساقوا فيها معدومى المقاومة ..

***

فتحت تيريز النافذة ثم مزقت الرسائل الى قطع دقيقة وهى متكئة فوق الهاوية الحجرية التى لم يكن يعكر سكونها فى تلك

الساعة المبكرة من ساعات الفجر غير عربة متثاقلة . قطع الورق الممزقة تلف وتدور فى الهواء ثم تتهـاوى على شرفات الادوار السفلى . ما هذه الرائحة النباتية التى استنشقتها المرأة الشابة؟ من اى الحقول جاءت لتستقر على تلك الصحراء الأسفلتية ؟ مرت بخاطرها صورة لجسدها وقد تناثرت أجزاؤه فوق ارض الشارع وتجمعت حوله اخلاط من رجال الشرطة والعابرين المتسكعين .. لا . ان لتيريز من الخيال ما يحول بينها وبين الانتحار . انها فى حقيقتها لا تتمنى ان تموت . فهناك عمل هام ينتظرها .. عمل ليس محوره الانتقام ؛ لا ، ولا الحقد . وانما محوره تلك الصغيرة الحمقاء القابعة هناك فى سانت كلير متوهمة ان السعادة يمكن الوصول اليها . يجب ان تعلم هذه الصغيرة ما تعرفه تيريز من ان السعادة لا وجود لها . واذا لم يكن بينهما شيء متشابه فلتشتركا على الاقل فى الملل وفى انـكار الاعتراف بوجود المهام العليا والواجبات السامية ، وفى استحالة توقع اى شيء غير الاعتيادات اليومية الحقيرة . فلتشتركا فى العزلة التى لا يخالطها عزاء . انتشر ضوء الفجر على الاسطح فاضاءها وعادت تيريز الى سريرها بجوار الرجل الممدد بلا حراك .. وما ان القت بجسمها قريبا منه حتى شعرت به مرة اخرى يقترب منها .

استيقظت صافية الذهن موفورة العقل والتفكير . ما الذى ذهب بها الى تلك الأبعاد السحيقة ؟ ان اسرتها تستنجد بها ولسوف تسلك السلوك الذى يرضى اسرتها . فهى بذلك لن تحيد عن الطريق المستقيم . اندفعت تيريز تبدى موافقتها على كل ما يقوله برنار حول ضرورة زواج آن من ديجلهيم وأن فشـل هـذا الزواج يعنى الكارثة الكبرى . ان اسرة ديجلهيم بعيدة عن مستواهم الاجتماعى . حقا ، ان جدها الأعلى كان راعيا من الرعاة . ولكنها اليوم تمتلك اجمل ما فى المنطقة من اشجار الصنوبر ، هذا بينما آن . مهما قيل عنها — لا تعتبر من الاثرياء . ليس لها ان تنتظر من ميراث ابيها غير الكروم القابعة فى قاع الوادى بالقرب من بلدة لانجون حيث تغمرها المياه سنة بعد اخرى .. يجب ايا كان الثمن الا يفشل زواج آن من ديجلهيم .. شعرت تيريز بتقـزز شـديد

من رائحة الشيكولاته التى انتشرت فى أنحاء الغـرفة .. هـذا الغثيان الخفيف يؤيد العلامات الاخرى ، انها حامل ، قال برنار :

— من الخير أن يأتى ذلك فورا حتى لا نفكر فى أمره بعد الآن.

ثم تطلع فى اجلال الى تلك المرأة التى تحمل بين احشائها المالك الوحيد لعدد لا يحصى من اشجار الصنوبر .

— ٥ —

سانت كلير .. بعد لحظة ستكون فى سانت كلير .. أخذت تيريز تقيس فى ذهنها الطريق الطويل الذى قطعته افكارها .. هل فى استطاعتها أن تحمـل برنار على الوصول معهـا الى تلك النهاية ؟ انها لا تكاد تأمل ان تراه راغبـا فى السير بخطى وئيدة على هذا الطريق الوعر . ولـكن ما زال باقيا من الأمر جوهره :

— عندما أصل به الى هذا الضيق الذى انا فيه الآن ، سيبقى على ان استكشف كل شيء ، فانى لم أصل الى القرار بعد ..

انحنت تيريز على الطلسم الـكامن فى نفسها واخذت تحاور تلك الزوجة الشـابة التى طالما اعجب الجميـع بحكمتها عنـدما قدمت من المدينة لتستقر فى سانت كلير .. استعادت فى ذهنها اسابيعها الاولى فى منزل أهل زوجها بعد ذلك الرطب المعتم .. ان نوافذه المطلة على الميدان الـكبير كانت مغلقـة دائما ، ولـكن الجهة اليسرى كانت تطل من خلال السياج على الحديقة الملتهبة بأزهار الهليوتروب والجيرانيوم والبيتونيا . كان هنـاك لاتراف العجوز وزوجته متحصنين داخـل الصالون المظلم الصغير فى الدور الأرضى وكانت هنـاك آن هـائمة وسط تلك الحديقة ، ومحظور عليها مغـادرتها ، وكانت تيريز تنتقـل بين هؤلاء وهؤلاء تحمل اسرار البعض وتتآمر مع البعض الآخر . كانت تقول للعجوز وزوجته : « فـكا عنها الحصار قليـلا . اسمحا لها بالسفر فى رحلة قبل ان تتخـذ اى قرار . أنا كفيلة بأن احصـل منها على طاعتهـا لـكما فى ذلك . سأسعى الى ذلك فى غيبتكما » ..

كيف يتم ذلك ؟ ان لاتراف وزوجته يريان أن « آن » سوف تسارع الى التعرف على ابن ازيفيدو .. كانت تيريز تعترض قائلة :

— يا أمى ، انك لن تصلى الى شىء عن طريق الهجوم المباشر .

كانت مدام دى لاتراف ترى ان أخبار ذلك الحدث الجلل لم تتسرب الى الخارج بعد وهى تحمد الله على ذلك .. ليس غير الآنسة مونود عاملة البريد من يعلم بالامر فقد ضبطت رسائل عديدة قادمة من آن ..

— ولكن هذه الشابة تحافظ على الاسرار كانها القبر . وهى على كل حال فى يدنا ولن تتحدث بشىء .

كثيرا ما كان هكتور دى لاتراف يقول : « علينا الا نجعلها تتعذب الا فى اقل قدر ممكن ..

ولكن ذلك الرجل الذى طالما استجاب الى نزوات آن كلها لم يكن ليستطيع الا ان يوافق على كل ما تقوله زوجته فكان يقول :

— لابد لآكل البيض من ان يكسره .. وسياتى يوم تشكرنا فيه على ما فعلنا ..

فكانت تيريز ترد قائلة :

— ولكن .. الى ان يأتى هذا اليوم اليس من الممكن أن تصاب بالمرض ؟..

عندئذ كان الزوجان يلوذان بالصمت وعيناهما سارحتان لاشك انهما كانا يتبعان فى مخيلتهما ابنتهما الذابلة تسير فى وهج الشمس نافرة عن تناول الطعام وهى تطأ بقدميها الزهور التى تراها وتتسلل على طول السياج فى خطوات الظبى الحبيس تبحث عن مخرج لتنطلق منه .. كانت مدام دى لاتراف تهز رأسها وتقول :

— ليس فى استطاعتى أن آكل الحساء بدلا منها ، اليس كذلك ؟ انها تملأ بطنها بالفاكهة فى الحديقة لتترك اثناء الطعام اطباقها فارغة ..

بينما هكتور دى لاتراف يقول :

— سوف تلومنا فيما بعد اذا ما وافقنا على هذا الزواج ..

لا ، يجب الا نوافق ولو من اجل الاطفال البؤساء الذين ستأتى بهم الى هذا العالم ..

كانت زوجته لا تخفى حنقها عليه لما يبدو من محاولة انتحال الأعذار لابنته وكانت تقول :

— لحسن الحظ أن آل ديجهليم لم يأتوا بعد وانهم متمسكون بهذا الزواج استمساكهم بحبة أعينهم ..

كان الزوجان ينتظران الى ان تغادر تيريز الحجرة ليسائل احدهما الآخر :

— ولكن ، بماذا حشوا راسها فى الدير ؟ ان عينها لم تقع هنا الا على كل قدوة حميدة . لقد راقبنا قراءاتها .. ان تيريز تقول ليس كروايات الحب التى تصدر فى مجموعة الكتب الجيدة للاطاحة بعقول الفتيات .. ولكن كلامها كله متناقض . على ان آن ولله الحمد لا تميل الى القراءة ولم أبد لها قط اية ملاحظة فى هذا الشأن .. فهى من هذه الناحية ربة أسرة كاملة . على انه لو استطعنا أن نتيح لها فرصة لتغيير الهواء ... هل تذكر كم افادتها الرحلة الى سالى بعد اصابتها بمرض الحصبة التى صاحبها الاحتقان الرئوى؟ سنذهب الى حيث تشاء هى .. ليس لدى ما أقوله غير ذلك .. هذه الصبية جديرة بكل عطف فى الحقيقة ..

كان مسيو دى لاتراف يتنهد فى غمغمة ويقول ردا على زوجته :

— أو ..! رحلة معنا ..؟ لا شىء .. لا شىء ..

بينما الزوجة التى ثقل سمعها تسأله :

— ماذا تقول ؟..

تذكر الرجل العجوز فجاة وسط هذا الثراء الذى استقر فيه أين هى رحلة الغرام التى قام بها هو ؟ أين هى ساعات الهناء فى شبابه الواله ؟ .

***

فى الحديقة اسرعت تيريز الى الصبية التى تهدل على جسمها ثوب العام الماضى . سألتها آن عند اقترابها منها :

— ما وراءك ؟..

هـذا الرماد الذى يكسو طرقات الحديقة ؛ وهذه الحقول الجافة المتفتتة ، وهـذه الرائحة المنبعثـة من ازهـار الجيرانيوم المحترقة . وهذه الفتاة التى تزيد على النباتات ذبولا فى ظهيرة شهر اغسطس الحار ، كل هذا وجدته تيريز فى زوايا قلبها ..

وكثيرا ما حدث ان الجاتهما نوبات المطر المفاجىء الى الاحتماءداخل الصوبة حيث كانت حبات البرد المتساقط ترتطم بالزجاج فتنبعث منه اصوات عالية .

— ما الذى يمنعك من السفر ما دمت لا ترينه ؟..

— انى لا اراه حقا ولـكنى اعرف انه يتنفس على بعد عشرة كيلو مترات من هذا المكان . وعندما تهب الريح من الشرق اعلم انه يسمع دقات الأجراس فى الوقت الذى اسمعها فيه انا . هل يتساوى عندك ان يكون برنار فىارجلوز او فىباريس ؟ انى لا ارى جان ولكنى اعلم انه ليس بعيدا عنى . فى يوم الأحد فى الكنيسة لا احاول ان التفت براسى لأن المحراب هو وحـده الذى يرى من حيث نحن جالسون وهناك عمود يفصل ما بيننا وبين الحاضرين ولـكن عند مغادرة المكان ..

— الم يكن هناك يوم الأحد الماضى ؟..

كانت تيريز تعـلم انه لم يكن هنـاك ، وكانت تعلم ان آن وقد دفعتها امها دفعا جالت بنظرها وسط الجمع تبحث سدى عن الوجه الحبيب الغائب .

— ربما كان مريضا .. أنهم يحجزون عنى رسـائله .. لا استطيع ان اعلم شيئا .

— انه لأمر عجيب حقا ألا يجد وسيلة لايصال كلمة منه اليك

— لو شئت انت يا تيريز .. نعم ، انى أعلم ان موقفك دقيق .

— وافقى على هذا السفر وفى اثناء غيابك ربما ..

— لا استطيع البعد عنه .

— ايا كان الأمر فهو سوف يذهب يا عزيزتى ، بعد بضعة اسابيع سيرحل عن ارجلوز .

— آه ، اسكتى . انها فكرة لا اطيقها . ما من كلمة منهتعاوننى على الحياة ؟ انى لاكاد أموت جزعا . يلزمنى فى كل وقت ان اذكر كلماته التى منحتنى اقصى قدر من السعادة .. ولكن من فرط ما كرر على كلماته لا اكاد أصدق انه قالها لى فعلا .. اليك كلمته هذه فى آخر لقاء لنا مازلت أسمعه يقول :

— ليس فى حياتى شخص آخر غيرك ..

— نعم هذا ما قاله لى او لعل كلماته كانت « أنت اثمن ما لى فى حياتى » ليس فى استطاعتى أن اذكر الكلمات بالضبط ..

ضمت آن مابين حاجبيها تبحث عن صدى هذه الكلمات الحلوة التى امتدت بمعناها الى آفاق لا نهاية لها ..

— ولكن ، ما شكل هذا الشاب ؟

— انك لا يمكنك أن تتصورى ما هو عليه .

— هل هو يختلف الى هذا الحد عن الآخرين ؟..

— بودى ان اصفه لك ولكنه ابعد كثيرا عما استطيع قوله .. ربما وجدته بعـد كل الذى اقوله عنـه شخصا عاديا جدا .. ولكنى على يقين من انه ليس كذلك .

انها لم تلحظ شيئا خاصا تميز به هذا الشاب الذى اضفى عليه حبها له كل هذا الرواء والحسن .. قالت تيريز فى نفسها :

— أما أنا فان الشهوة تزيد فى صفـاء الذهن فلا يفلت منى شىء يتعلق بالرجل الذى أشتهيه لنفسى ..

— تيريز ، هـل اذا قبلت الرحيل سترينه ؟ هل تحملين الى كلماته ؟ . هل تنقلين اليه رسائلى ؟ . اذا سافرت .. اذا وجدت لدى الشجاعة على السفر .

تركت تيريز عالم الضوء والحمم وعادت مرة اخرى كنحلة تسعى الى داخل حجرة المكتب حيث كان الأب والأم ينتظران هبوط حدة الحر وانكسار عناد ابنتهم .. اضطرت الى الذهاب والمجىء مرات عديدة قبل أن ترضى آن بالسفر .. مما لا شك

اقيه ان تيريز ما كانت لتنجح فى تحقيق هذا التحول لولا قرب قدوم آل ديجلهيم . لقد كانت آن تنتفض فزعا لهذا القدوم ، ولما يمثله من خطر ، خصوصا وأن تيريز كانت تكرر لها القول :

— ان هذا الشاب الفنى ديجلهيم لا عيب فيه بالمرة كزوج .

— ولكن يا تيريز انى لم انظر اليه الا قليلا .. انه يلبس نظارات .. انه اصلع .. انه عجوز ..

— انه فى التاسعة والعشرين ..

— هذا ما اقوله : انه عجوز .. سواء اكان عجوزا أم غير عجوز ..

***

فى اثناء تناول طعام العشاء تحدث لاتراف وزوجته عن بيارتنر وتساءلا عن فنادقها . اخذت تيريز ترقب آن وهى جسم جامد لا روح فيه .. كانت مدام دى لاتراف تكرر القول لابنتها :

— اضغطى على نفسك قليلا .. اضغطى ..

بينما آن تقدم الملعقة الى فمها فى حركة آلية .. ما من لمعة تبرق فى عينيها .. لا شىء لا اجد له وجودا فى نظرها غير هذا الغائب .. من وقت لآخر ترتسم على شفتيها ابتسامة حائرة لذكرى كلمة سمعتها او لمسة مستها يوم ان قابلت جان ازيفيدو فى احد الاكواخ المبنية من فروع الشجر وقد انطلقت يده القوية تمزق جانبا من قميصها .. كانت تيريز تنظر الى برنار وقد انحنى بجسمه فوق الصحفة التى يأكل فيها .. لم تكن ترى وجهه لأن الضوء آت من خلفه ولكنها كانت تسمع مضغه البطىء ولوكه للطعام الذى كان يقدسه .. غادرت تيريز المائدة فقالت حماتها :

— انها تفضل الا يراها احد فى تلك الحال .. بودى لو دللتها ، ولكنها لا تحب ان يعنى بها احد .. هذا التعب هو اقل ما تشعر به المرأة فى وضعها هذا .. لها أن تقول ما تشاء ولكنها تفرط فى التدخين ..

ثم انطلقت السيدة العجوز تروى من ذكريات حملها :

— انى اذكر حينما كنت انتظر قدومك ، انى كنت اضطر الى استنشاق رائحة المطاط .. لم تكن هناك وسيلة غير هذه لاعادة امعائى الى مكانها ..

***

— تيريز ، اين انت ؟ ..

— هنا على المقعد ..

— نعم .. انى أرى نار سيجارتك ..

تجلس آن ساندة راسها الى الكتف الجامدة .. تنظر الى السماء قائلة :

— انه يرى هذه النجوم .. انه يسمع صلاة المساء ..

ثم تقول :

— قبلينى يا تيريز ..

ولكن تيريز لا تنحنى على راس الصبية وانما تسألها :

— هل تتألمين ؟ ..

— لا .. انى لا أتألم هذا المساء .. لقد فهمت انى بطريقة او باخرى سوف اجتمع به . انا مطمئنة الآن . الامر الذى يهمنى هو أن يعرف ذلك وسيعرفه منك انت . لقد صممت على هذا السفر ولكن عند عودتى سوف اخترق من أجله الحوائط .. ان عاجلا أو آجلا سأرتمى فى احضانه .. هذا ما انا واثقة منه ثقتى بحياتى نفسها .. لا ، يا تيريز لا .. انت على الاقل لا تعظينى .. لا تحدثينى عن الأسرة ..

— اننى لا افكر فى الأسرة يا عزيزتى وانما افكر فيه هو .. أن المرأة لا تقتحم هكذا حياة الرجل .. ان له اسرته هو الآخر ، وله مصالحه ، وله عمله وربما كانت له علاقة ..

— لا .. لقد قال لى :

— ليس لى الا انت فى حياتى ..

وفى مرة اخرى قال لى :

— ان حبنا هو الشىء الوحيد الذى اعتز به فى هذه اللحظة ..

— فى هذه اللحظة ؟ ..

— ماذا تظنين ؟ هل تعتقدين انه ماكان يعنى الا اللحظة وقتها ؟

لم تعد بتيريز حاجة لان تسألها هل هى تتألم ، فقد كانت تسمعها وهى تتألم فى الظلام .. ولكنها ما كانت تحس بشفقة عليها .. لماذا تشفق عليها ؟ ولماذا ترثى لها ؟ ما احلى أن يعيد المرء اسما يدل على الشخص الذى ارتبط به قلبه برباط وثيق ! ان مجرد الادراك بانه عائش حى ، وبأنه يتنفس ، وبانه ينام فى الليل ساندا راسه الى ذراعه المطوية ، وبانه يستيقظ فى الفجر ، وبأن جسمه الشاب يمرق وسط الضباب بحركة ..

ـ هل تبكين يا تيريز ؟ أمن أجلى تبكين ؟ انك تحبينني انت ..
جثت الصغيرة على ركبتيها واسندت راسها الى خاصرة تيريز ثم فجأة انتصبت واقفة قائلة :

ـ لقد احسست تحت جنبى شيئا ما يتحرك ..
ـ نعم ، انه منذ بضعة ايام يتحرك ..
ـ الصغير ؟..
ـ نعم .. انه حى يرزق ..

***

عادتا الى المنزل وقد لفت كل منهما ذراعها حول خصر الاخرى كما كانتا تفعلان من قبل على طريق نيزان او على طريق ارجلوز . تذكرت تيريز انها خافت من هذا الحمل المضطرب . كم من شهوة تعتمل فى قرارة نفسها سوف تنتقل منها الى هذه المضغة التى لم تتشكل بعد ! .. استعادت تيريز الى ذاكرتها ذلك المساء وقد جلست فى غرفتها الى جوار النافذة المفتوحة وقد صاح عليها برنار من اقصى الحديقة : « لا توقدى النور خوفا من الناموس » لقد اخذت فى ذلك المساء تعد الأشهر الباقية على الولادة وتمنت لو كانت تعرف الى الله سبيلا لتسأله الا يبرز ابدا الى الوجود ذلك المخلوق المجهول الذى مازال خليطا مضطربا فى احشائها .

ـ ٦ ـ

الغريب ان تيريز لم تعد تذكر من الايام التى تلت رحيل آن وآل لاتراف الا مايذكره المرء من فترة النعاس والخمول . وفى

أرجلوز ، حيث تم الاتفاق على ان تجد الوسيلة للتأثير على ازيفيدو هذا وحمله على الانسحاب ، لم تكن تفكر الا فى الراحة والنوم . لقد وافق برنار على الا يقيم فى منزله ، وانما فى منزل تيريز حيث وسائل الراحة اوفر وحيث تتولى عنهم العمة كلارا جميع مشاغل البيت . ماذا كان يعنى تيريز من شان الآخرين ؟ ليتول كل واحد شئون نفسه بنفسه . ماكان ليحلو لها شىء قدر هذا الهجوع حتى يحل موعد وضعها . كان برنار يثيرها كل صباح وهو يذكرها بما وعدت من الاتصال بجان ازيفيدو . كانت تيريز تنهره ولا تطيق عليه صبرا الا فى عسر متزايد . ربما كانت حالة الحمل ـ كما يقول برنار ـ ليست غريبة عن حالة الضيق هذه . وهو نفسه كان يشعر باللمسات الأولى لحالة القلق التى تصيب عادة الأشخاص الذين من فصيلته ، والتى قلما تبرز مع ذلك قبل سن الثلاثين . ان الخوف من الموت كان أمرا غريبا من هذا الشاب القوى البنية حتى ليحسبه الرائى مبنيا من الجير والرمل . ولكن ماذا كانت تستطيع تيريز أن تقول له وهو يشكو :

ـ انك لاتدرين بما احس به .. ؟

ان اجسام أولئك الذين يأكلون بنهم شديد وينحدرون من أرومة عاطلة عن العمل كثيرة التغذية لا يتوفر لها الا مظهر القوة والعافية . ان شجرة الصنوبر التى تزرع فى الارض الدسمة وسط الحقول المسمدة تنمو سريعا وتشمخ ولكنها سرعان ماتتعفن فى أحشائها ويقتضى الأمر اقتلاعها وهى فى عنفوان قوتها . لطالما قالوا له أن ذلك من عوارض الأعصاب ؛ ولكن برنار كان يشعر بالشرخ ينتشر وبالداء يسرى . ثم هذا الامر الذى لايصدق : انه لم يعد يأكل كما كان يفعل من قبل ، انه لم يعد يشعر بالجوع .

ـ لماذا لايذهب لاستشارة الطبيب ؟

كان يهز كتفيه ويتظاهر بالاستهتار . ان الشك كان يبدو فى الحقيقة فى نظره اقل هولا من حكم بالموت قد يصدر عليه . كان يحدث أن تنطلق منه فى الليل زفرة تستيقظ لها تيريز مذعورة .. وكانت يد برنار تمسك بيدها وتضغط بها على الجانب الايسر من

صدره لتتحسس الخفقات . كانت توقد شمعة وتغادر فراشها لتصب بعض الدواء فى كوب من الماء . كانت تعجب من ان يكون هذا المزيج شافيا وتتساءل لماذا لايكون قاتلا ؟ ليس هناك شىء يهدىء ، شىء يجلب النوم ، مالم يكن ذلك الى الأبد .. هذا الرجل الشاكى ، ماذا دهاه حتى يخشى الشىء الذى يعطيه الهدوء الى الأبد ؟ . كان يستغرق فى النوم قبل أن تقفل عينها .. كيف يمكن النوم الى جانب هذا الجسم الكبير الذى ينبعث منه الشخير احيانا مصحوبا بالانين المرير ؟ حمدا لله ، انه لم يعد يقربها لاعتقاده ان انفعال التقارب هو من بين حركات الجسم اخطرها على قلبه . عندما صاحت الديكة فى الفجر لتوقظ الفلاحين ، وعندما دقت اجراس سانت كلير تعلن صلاة الصباح على موجات الريح الشرقية اغلقت تيريز عينيها اخيرا . عندئذ تحرك جسم الرجل وهب مسرعا يرتدى ملابس الفلاحين بعد ان غمس راسه غمسا خفيفا فى الماء البارد . اسرع متسللا كالكلب الى المطبخ يتذوق بقايا خزانة الطعام . أفطر وهو واقف بقطعة من الدجاج وشريحة من اللحم البارد أو بعنقود من العنب مع كسرة من الخبز مدهوكة بالثوم . انها الوجبة الرئيسية الوحيدة التى يتناولها طوال النهار . انه يلقى بشىء من الطعام الى كلبيه فلامبو وديان فيسمع (طرقعة) فكيهما . ان الضباب فى الخارج يفوح برائحة الخريف . هذه هى اللحظة التى لايشعر فيها برنار بالالم والتى يحس فيها بشبابه القوى يعود اليه . عما قريب ستقبل الحمائم البرية ويجب الاهتمام باعداد صفارات التضليل ، فى الساعة الحادية عشرة يعود الى تيريز فيجدها مازالت فى سريرها نائمة .

ـ اذن ؟ وماذا عن ابن ازيفيدو ؟ انت تعلمين ان امى تنتظر الاخبار فى بيارتيز بشباك البريد ؟

ـ وقلبك ؟

ـ لا تكلمينى عن قلبى . يكفى أن تكلمينى عنه حتى اشعر به من جديد .. طبعا ، هذا دليل على أنها حالة عصبية .. الا تعتقدين انت ايضا انها حالة عصبية ؟

« لم تكن تعطيه ابدا الرد الذى يريده ؟ » .

ـ لا احد يدرى . انت وحدك الذى تعرف ماتشعر به . ليس سببا أن أباك مات من الذبحة الصدرية .. خصوصا فى سنك هذه .. طبعا ، القلب هو أضعف ما فى أفراد عائلة دى كوبرو .. . يالك من غريب يا برنار مع خوفك هذا من الموت ! .. الا تشعر انت كما اشعر انا بعدم الفائدة من وجودنا ؟ الا تعتقد ان الحياة بالنسبة للناس الذين على شاكلتنا تشبه الموت ؟

هز كتفيه .. انها تصدعه بمتناقضاتها .. ليس عسيرا على المرء ان يستظرف ، فما عليه الا ان ياخذ فى كل شىء بما يخالف المعقول . ولكنه كان يرى انها تخطىء اذ تجهد ذكاءها معه ، وان من الخير أن تحتفظ بهذا الذكاء لحين لقائها مع ابن ازيفيدو .

ـ انك تعلمين انه سيغادر فليميجا حوالى منتصف اكتوبر .

* * *

عند فيلاندر ـ المحطة التى تسبق سانت كلير ـ فكرت تيريز :

ـ كيف لى ان اقنع برنار باننى لم احب قط هذا الفتى ؟ سيظن بالضرورة اننى احببته حب العبادة .. انه يعتقد كما يعتقد اولئك الذين يجهلون الحب جهلا عميقا ان جريمة مثل التى يتهموننى بها لايمكن الا ان تكون جريمة عاطفية .

يجب ان يفهم برنار انها فى تلك الفترة كانت ابعد ماتكون عن كراهيته وان بدا لها فى الكثير من الأحيان سخيفا ولكن لم يكن يجول فى خاطرها أن رجلا آخر فى وسعه ان يمد لها بعض العون . لم يكن برنار على اية حال سيئا الى هذا الحد . لطالما اشمأزت ، فى الروايات التى قراتها من وصف الاشخاص غير العاديين الذين لايصادف المرء لهم شبيها فى الحياة .

ان الرجل الممتاز الوحيد الذى تعتقد انها عرفته هو ابوها . انها تجهد نفسها فى اضفاء شىء من العظمة على هذا السياسى الراديكالى العنيد المحاذر الذى يلعب على اكثر من حبل . فعلا

انه من الملاك الصناعيين تراه يمتلك مصنعا لنشر الخشب فى بلده ويتولى بنفسه معالجة عصارات اشجاره واشجار أقربائه العديدين فى مصنع له فى سانت كلير . وهو كرجل سياسى قد عانى كثيرا بسبب طبعه العنيف ، ولكنه على الرغم من ذلك ذو كلمة مسموعة فى دور الحكومة . ما اكثر احتقاره للنساء .. حتى لتيريز نفسها فى الوقت الذى كان الجميع فيه يشيدون بذكائها وفطنتها . انه لا يكف منذ وقوع المأساة عن ترديد قوله :

ــ كلهن مجنونات عندما لا يكن غبيات .

هذا الزنديق كان يبدو عند اللزوم متزمتا .. وعلى الرغم من انه كان يترنم احيانا ببعض الحان بيرانجيه ، الا انه ماكان يحتمل الحديث امامه عن بعض الموضوعات ، ويحمر وجهه خجلا كالمراهق الغرير .. لقد سمع برنار من مسيو دى لاتراف أن لاروك عندما تزوج كان طاهرا لم يقرب النساء من قبل :

ــ ومنذ ان ترمل اكد لى هؤلاء السادة أن احدا لم يعرف قط أن له خليلة .. انه لرجل عجيب ، ابوك هذا ..

ــ حقا .. انه لرجل عجيب ! ... ولكن اذا كانت تيريز تتخيل اباها على البعد فى هذه الصورة البديعة ، فانها سرعان ماكانت تقيس على القرب نذالته . كان مجيئه الى سانت كلير قليلا والى ارجلوز كثيرا ، فهو لا يحب مقابلة آل لاتراف . وعلى الرغم من خطر التحدث فى السياسة فيما بينهم ، فما يكادون يجتمعون على الطعام حتى يتطور النقاش السخيف بينهم الى مرارة .. كانت تيريز تخجل من المشاركة فى حديثهم هذا وكانت تركز كبرياءها فى الا تفتح فمها الا حينما يتطرق الحديث الى المسالة الدينية . عندئذ كانت تهب لنجدة مسيو لاروك . كان الصراخ يتصاعد من كل منهم حتى ان العمة كلارا نفسها كانت تسمع بعض اطراف النقاش فتلقى بنفسها فى المعمعة وتنساب مطلقة صوتها الكئيب صوت الصماء العجوز ذات الآراء الراديكالية المتطرفة :

ــ من يدرى ماالذى يحدث فى الاديرة !

كانت تيريز ترى أن العمة كلارا فى قرارة نفسها اكثر تدينا من أى فرد آخر فى عائلة لاتراف ، ولكنها فى حرب نفسية بسبب ماهى عليه من الصمم والدمامة والذى قضى عليها بان تموت من غير أن تعرف الحب ومن غير ان يمتلكها رجل . منذ ذلك اليوم الذى غادرت فيه مدام دى لاتراف اتفق الجميع على الايدور الحديث بينهم على الروحانيات فقد كان فى السياسة ما يكفى لاخراج هؤلاء القوم عن وعيهم .. وسواء أكانوا من اليمينيين أم من اليساريين فان بينهم اتفاقا على هذا المبدا الجوهرى وهو ان الملكية تمثل الخير الوحيد فى هذا العالم وان السبب الاسمى للحياة هو تملك الارض . اما ان يحسب للنار حسابا فى ذلك والى اى مدى يمتد هذا الحساب ، فان تيريز « التى كانت الملكية فى دمها »

كانت تود لو ان السؤال اثير فى مثل هذه الصراحة الجارحة ، ولكنها كانت تكره فى آل لاروك وفى آل لاتراف على السواء تلك المظاهر الكاذبة التى يخفون وراءها مابينهم من شهوة مشتركة . وحينما كان ابوها يعلن عن « ولائه الذى لايتحول للديمقراطية » كانت تقاطعه قائلة :

ــ لا داعى لذلك فنحن الآن بمفردنا .

انها كانت تقول ان الكمال فى السياسة (يقرفها) ان المأساة فى صراع الطبقات كانت تغيب عن ذهنها فى ذلك البلد الذى يمتلك فيه افقر الناس املاكا ولا يطمعون الا فى ان يزيدوا مقدار مايملكون ، ذلك البلد الذى خلق فيه حب الناس المشترك للارض والصيد والاكل والشرب ، اخوة وثيقة بين سكان الحضر والفلاحين . ولكن برنار كان يضم الى هذه الصفات كلها قدرا من التعليم . كان الناس يقولون عنه انه برز من جحره الى الخارج . ان تيريز نفسها كان يسرها ان تجد فيه رجلا يمكن التحدث معه ، رجلا يعلو فوق الوسط الذى برز منه . هذه كانت نظرتها اليه حتى ذلك اليوم الذى قابلت فيه جان ازيفيدو .

* * *

كان ذلك فى الفترة التى تمتد فيها برودة الليل الى صبيحة اليوم كله ثم تنقلب الشمس فى وقت الأصيل الى احر ما تكون عليه

صيفا بينما الضباب الخفيف ينبىء على البعد عن قرب حلول المساء . لقد مرت الحمامات البرية الاولى وما كان برنار ليعود الى المنزل الا عند هبوط الليل . على انه فى ذلك اليوم صحا بعد ليلة سيئة قضاها ثم ذهب لتوه الى بوردو ليعرض نفسه على الاطباء .

قالت تيريز تخاطب نفسها :

ـ ماكنت راغبة فى شىء عندئذ .. لقد خرجت أسير ساعة على الطريق لأن من واجب الحبلى أن تسير قليلا . لقد تحاشيت المرور وسط الأحراش حتى لا أضطر بسبب مصايد الحمام الى التوقف فى كل لحظة واطلاق الصفارة ثم الانتظار الى أن يسمح الصياد بصرخة عاليه بالمرور . وكثيرا مايحدث ان ياتى الرد على هيئة صرخة طويلة : لقد هبط سرب من الحمام وسط اشجار البلوط ، وهنا يجب الانزواء خوفا من الاصابة . عدت الى المنزل واخذت اتناعس امام نار الصالون او امام نار المطبخ ، تقوم على خدمتى فى ذلك كله العمة كلارا . وما كنت لاعير التفاتا لتلك العانس التى لاتكف عن سرد قصص الخدم والفلاحين . انها تلحق القصة بالقصة ، وكانت قصصها دائما كئيبة ابطالها الفلاحون الذين تعنى بهم وترعاهم فى تفان عجيب ، عجزة قضى عليهم بأن يموتوا جوعا وبأن يعملوا حتى الموت ، وآخرون لا عائل لهم ونساء يقمن بأشق الأعمال .. كانت العمة كلارا تستعيد فى عامية بريئة وفى شىء من السعادة كلمات هؤلاء البؤساء . انها فى الحقيقة لم تكن تحب احدا الا أنا بينما كنت لا أعيرها ادنى التفات وهى تركع على ركبتيها تفك اربطة حذائى وتخلع جواربى وتدفىء قدمى بين يديها الباليتين .

ـ كان باليون يحضر لتلقى طلباتنا عندما ينوى الذهاب فى اليوم التالى الى سانت كلير ، فكانت العمة كلارا تعد قائمة بالاوامر وتجمع وصفات الدواء لمرضى ارجلوز وتقول له :

ـ تذهب اول ماتذهب الى الصيدلية فقد لايكفى اليوم بطوله لاعداد الادوية .

ـ أول لقاء لى مع جان ... يجب أن اذكر دقائق كل ظرف .. لقد اخترت ان اذهب الى ذلك الكوخ المهجور الذى طالما تناولت فيه الطعام مع آن ، والذى اعلم انها احبت ان تقابل فيه ازيفيدو . لا ، لم يكن فى ذهنى ان احج الى هذا المكان ، ولكن اشجار الصنوبر فى هذا المكان كانت قد بلغت من الارتفاع حدا لا يسمح باقامة مصايد الحمام فيها . فما كنت اخشى ان أفسد على الصيادين عملهم . ان هذا الكوخ لم يكن يصلح للصيد منه ، لأن الغابة فيما حوله كانت تسد الافق تماما وقمم الاشجار لا تتيح تلك الفجوات الواسعة التى من خلالها يرقب الصيادون قدوم الاسراب . انى مازلت اذكر أن شمس ذلك اليوم من اكتوبر كانت لاسعة ، وانى كنت اعانى من السير على الطريق الرملى وأن الذباب كان يضايقنى . كم كان بطنى ثقيلا .. !

لقد انحصر همى كله فى الاسترخاء على ذلك المقعد المتداعى داخل مصيدة الحمام المهجورة . ماكدت افتح باب الكوخ حتى خرج الى شاب عارى الراس عرفت فيه للوهلة الاولى جان ازيفيدو . ظننت فى اول الامر انى قد افسدت عليه لقاء غراميا ، اذ بدا الاضطراب واضحا على وجهه . لقد حاولت عبثا ان انصرف ولكنه تشبث بى يستبقينى :

ـ كلا يا سيدتى بل ادخلى انك لن تفسدى على شيئا .

ـ دخلت الكوخ بعد الحاح منه فعجبت اذ لم اجد به احدا . لعل الراعية قد افلتت من باب آخر ؟ ولكن ما من عود سمعته ينكسر . لقد عرفنى هو الآخر على التو ، وكان اول اسم جاء على لسانه هو اسم آن دى لاتراف . كنت جالسة وهو واقف كما بدا لى فى الصورة الفوتوغرافية . نظرت من خلال قميصه الى ذلك المكان الذى انفذت فيه الدبوس . حب استطلاع مجرد لاشهوة فيه قط . هل رأيته جميلا ؟ جبهة عريضة قوية وعينان دعجاوان تنبئان عن عنصره وصدغان ممتلئان كثيرا ثم ذلك الشىء الذى طالما قززنى من الشبان فى تلك السن : بثور على وجهه علامة الدم المتحرك فى عروقه . انه ينضح من جسمه كله ، خصوصا من

كفيه المبتلتين اللتين اخذ يجففهما فى منديله قبل أن يصافحنى . ولكن نظرته الجميلة كانت كاوية . لطالما احببت ذلك الفم المنفرج دائما عن اسنان حادة ملتهبة . وانا ؟ كيف كان شكلى ؟ عائلى جدا على ماأذكر . لقد اخذت احدثه فى انفة ، واتهمه فى صوت رهيب انه يحدث الاضطراب والفرقة بين افراد عائلة محترمة . انى لأذكر دهشته لهذا الكلام وضحكته الصبيانية عندما قال :

ـ اذن انت تظنين انى سوف اتزوجها ؟ . انت تظنين انى اسعى الى نيل هذا الشرف ؟ .

ارتسم فى ذهنى وانا مندهشة مقدار الهوة الواسعة بين ماتشعر به آن من حب عميق وما يشعر به هذا الشاب من لامبالاة وعدم اكتراث . كان يدافع عن نفسه فى حرارة ، حقا ، لا يمكن مقاومته بحال . هذه الفتاة اللذيذة ، هل حرم على الشباب أن يلعبوا ؟ وما كان اللعب بينهما بريئا الا لأن فكرة الزواج كانت منتفية تماما . لقد تظاهر بلا شك بمشاركة آن فى نواياها ، ولذا اسرعت الى مقاطعته عند هذا الحد . ولكنه عاد يقول فى حماس ان آن نفسها سوف تشهد له بانه لم يتخط الحدود ولم يتماد معها الى بعيد ، اما فيما عدا ذلك فهو لايشك بان الآنسة دى لاتراف مدينة له بكل ماف حياتها الكئيبة من ساعات مليئة بالسعادة الحقيقية ، وبكل ما قد لها أن تلقاه من حب .. ثم قال :

ـ انك تقولين يا سيدتى انها تتألم ولكن هل تعتقدين ان فى حياتها شيئا تتطلع اليه خيرا من هذا الالم ؟ لقد وصل الى علمى صيتك ، واعرف أن هذه الاشياء يمكن ان تقال لك وانك لست كسائر القوم هنا . قبل أن تبحر آن الى اباس رحلة لها فى ذلك البيت العتيق القائم فى سانت كلير زودتها بذخيرة ثمينة من الأحاسيس ومن الأحلام .. ما يكفى لانقاذها ، ربما ، من اليأس ، وعلى التحقيق ، من التبلد .

لست اذكر الآن هل ضايقنى منه كل هذا الادعاء وكل هذا

التكلف ام انى انعطفت باحساسى اليه . لقد كانت الفاظه فى الحقيقة تنساب مسرعة الى درجة انى لم استطع متابعته فى تفكيره أول الامر . ولكن لم يلبث ذهنى ان تعود على هذه الزلاقة فى القول . قال :

ـ كيف ساغ الاعتقاد انى قد أرغب فى زواج كهذا ؟ . او أن القى بمرساتى على هذه الرمال ؟ أو أن احمل اكتافى فى باريس بفتاة صغيرة ؟ مما لاشك فيه انى سوف احتفظ دائما من آن بصورة محببة ، بل لقد كنت فى اللحظة التى فاجاتنى فيها زيارتك افكر فيها فعلا .. ولكن ، يا سيدتى ، كيف يمكن للانسان منا ان يثبت على حال ؟ . يجب أن تأتينا كل دقيقة من دقائق الحياة بكل ما فيها من لذة وسرور يختلفان عن كل ما سبقهما من لذة وسرور .

ـ هذا النهم الحيوانى الشاب وهذا الذكاء المتجمع فى كائن واحد تبديا لى فى غرابة اجبرتنى على أن استمع له والا اقاطعه . حقا ، لقد شدهت أنا ايضا ، وان لم يكلفنى ذلك ولله الحمد ثمنا كبيرا . ولكنى شدهت . وما زلت اذكر ذلك الدبيب المصحوب برنين الاجراس وبصرخات الرعاة الذى ينبىء على البعد عن اقتراب قطيع الاغنام . قلت للشاب :

لعل من سخف الامور ان نبقى معا هكذا فى ذلك الكوخ . وكنت اود لو انه قال لى من الخير الا نحدث اية حركة حتى ينتهى مرور القطيع اذن لسعدت بهذا الصمت الى جانبه بهذا التواطؤ معه ، فقد اصبحت انا الأخرى راغبة اتمنى ان تأتينى كل دقيقة بما يسعد الحياة . غير أن جان ازيفيدو سارع بغير اعتراض الى فتح باب الكوخ وانحنى بادب عظيم يؤذن لى بالانصراف . لم يصحبنى الى ارجلوز الا بعد ان تأكد من عدم ممانعتى فى ذلك .. كم كانت قصيرة رحلة العودة على الرغم من أن مرافقى وجد خلالها من الوقت ما يكفى للحديث فى الف موضوع ! . ان له قدرة عجيبة على تجديد ارائى فى كثير من تلك الموضوعات التى كنت اظننى ملمة

بها بعض الشيء . ففى المسالة الدينية مثلا شرعت اعيد على مسمعه الأفكار التى طالما رددتها امام افراد الأسرة ولكنه قاطعنى قائلا :

ـ حقا .. بلا شك .. ولكن الأمر اعقد من هذا كثيرا .

لقد كان يضفى على الحديث وضوحا بدا لى رائعا . ولـكن هل كان كلامه رائعا حقا ؟ انى اظننى منكرة ذلك اليوم . لقد قال انه طالما اعتقد ان ما من شىء يهم غير السعى الى الله والبحث عن سبيله . اما ميوله فهى .

ـ الاسفار وركوب البحر والفرار من اولئك الذين يعتقدون انهم قد وصلوا الى البر فسكنوا عن الحركة واقاموا لهم مأوى ينامون فيها . هؤلاء اود لو فررت منهم فرارى من الموت ، فلطالما احتقرتهم احتقارا شديدا .

سالنى هل قرات « حياة الأب دى فوكو » الذى الفه رينيـه بازان .. واذ تظاهرت بالضحك استهزاء اكد لى ان هذا الكتاب قد اقض مضجعه :

ـ ان الحياة الخطيرة بمعناها العميق لا تعنى فقط البحث عن سبيل الله ، وانما ايضا العثور على هذا السبيل ثم البقاء فى نطاقه بعد استكشافه .

كانت هذه كلماته ، ثم اخذ بعدها يصف لى المغامرة الـكبرى التى يسلكها المتصوفون ويشكو من أن طبعه الذى جبل عليه لايسمح له بمحاولة سلوكها . ثم قال انه بقدر ما تعود اليه ذاكرته لا يعتقد انه كان فى يوم من الأيام طاهرا .

« بى هذا الفجور وكل هذه السهولة فى الكشف عن مكنـون النفس !.. ما اقسى ما ابعدنى ذلك عن الحياء الريفى الذى عهدته، وعن التكتم الذى يخفى كل منا هنا فى طياته شئونه الخاصة !... ان الأحاديث فى سانت كلير لا تدور الا حول ما هو ظاهر ، اما ما فى القلوب فلا يكشف عنه احد . ما الذى اعرفه فى الواقع عن برنار ؟ الا توجد فيه اشياء كثيرة جدا غير صورته هذه المشوهة التى اكتفى بها كلمـا عدت الى تصوره ؟ . تكلم جان كثيرا بينما ظللت

أنا صامتة . لم تكن شفتاى تنطقان بغير العبارات الدارجة التى اعتدنا على ترديدها فى مناقشاتنا العائلية . وكما ان جميع المربات هنا « على قدر الطريق » اى ان عجلاتها اعـدت بالاتسـاع اللازم لتجرى فى الأخاديد والحفر المرتسمة فى الطريق ، فان أفكارى كانت حتى ذلك اليوم « على قدر الطريق » هى الأخرى بالنسبة لآراء ابى وأهل زوجى . سار جان ازيفيـدو عارى الرأس . ما زلت اذكر قميصه المنفرج عن صدر كصدر الطفل يعلوه عنق ممتلىء قوى . هل وقعت تحت تأثير صفاته البدنية ؟ لا ، حقا لا . ولكنه كان أول رجل التقى به يضع حياة الفكر فى المكان الأول من الاعتبار . ان أساتذته واصدقاءه فى باريس ممن كان يذكر لى بلا انقطاع آراءهم ومؤلفاتهم ، ليس من بينهم من يسمح لى باعتباره نابغة من النوابغ . قال لى انه واحد من نخبة كبرى من الناس « هم الذين يعيشون حقا » . ذكر لى أسماء معتقدا اننى لا يمكن ان اكون جاهلة بهم ، وكنت اتظاهر بأنى لا اسمع هذه الأسماء للمرة الأولى .

« عندما ظهرت حقول أرجلوز عند منعطف الطريق صرخت قائلة :

ـ هكذا ! بهذه السرعة !.. الدخان المتصاعد من الحشائش المحترقة يتدافع على مقربة من سطح الأرض التى اعطت حصادها من الشوفان . ومن فجوة وسط التلال ينساب قطيع من الغنم كأنه سيل من اللبن العكر وقد بدا افراده كأنما هم يأكلون الرمال . كان يجب على جان ان يخترق الحقل ليعود الى فيلميجا فقلت له :

ـ دعنى أصاحبك . هذه المسائل كلها تشوقنى ...

ولكننا لم نجد شيئا نتحدث عنه . سيقان الشوفان المحشوشة تخترق حذائى وتؤلمنى . كنت اشعر انه يود الانفراد بنفسه ليتابع، بلا شك ، فى حرية فكرة طرات له . قلت له اننا لم نتكلم بعد عن آن ، فاكد لى اننا لسنا احرارا فى اختيار ما تدور حوله أحاديثنا ، بل ولا ما تجول به تأملاتنا . ثم أضاف :

ـ والا ، كان علينا ان نستسلم لقواعد السلوك التى اخترعها

المتصوفون ... ان الناس الذين هم على شاكلتنا انما ينساقون دائما للتيارات ويسيرون دائما مع الميول ...

انه يرجع كل شيء الى قراءاته فى ذلك الوقت . تواعدنا على اللقاء لنحدد فيما يتعلق بأن خطة السلوك الذى يسلكه . كان يتكلم وهو مشتت التفكير ومن غير ان يجيب عن سؤال وجهته اليه انحنى الى الارض وفى حركة صبيانية اشار الى ساق نبات اقترب به من انفه ومن شفتيه .

— ٧ —

كان برنار واقفا على عتبة الباب ينتظر عودة تيريز . وما ان رأى ثوبها فى عتمة المساء حتى صاح :

— ليس بى شيء ... ليس بى شيء ... هل تعتقدين انى ، وانا على ما ترين من قوة وعافية ، مصاب بالهزال ؟ انه لأمر لا يصدق ، ولكنه مع ذلك هو الواقع . يجب الا تخدعنا المظاهر .. سأتبع علاجا ... علاج (فاولر) الذى اساسه الزرنيخ . الأمر المهم هو ان أستعيد شهيتى للأكل .

تذكرت تيريز انها فى اول الأمر لم تهتم لما قاله برنار . ان كل ما يجيئها منه لا يصيبها الا قليلا كأنه هو ضربة موجهة اليها من بعد كبير . لم تكن تصغى لما يقول فقد كان جسمها وروحها كلاهما متجهين الى عالم آخر ، عالم تعيش فيه الكائنات النهمة التى لا تتمنى الا المعرفة والفهم والتى تريد — كما قال جان فى اقتناعه العميق — ان تتحول الى ما هى عليه .

وعندما تحدثت على المائدة عن مقابلتها مع جان صاح بها برنار :

— لماذا لم تكلمينى عن ذلك ؟ يالك من امراة عجيبة ! هيه ! ماذا قررتما ؟

اخذت تيريز تشرح الخطة التى تتبع :

— جان ازيفيدو قبل ان يكتب لآن رسالة رقيقة يبدد فيها آمالها . ثار برنار عندما اخبرته تيريز ان هذا الشاب لا يرغب ابدا

فى هذا الزواج . كيف ؟ هل يعقل الا يرضى واحد من آل ازيفيدو بالزواج من آن دى لاتراف .

— لقد جننت يا عزيزتى ..! انه انما يعلم فقط ان هذا امر مستحيل . هؤلاء القوم لا يخاطرون بأنفسهم عندما يكون الفشل مؤكدا لهم . ما زلت نمرة يا صغيرتى ...

حرص برنار على الا يوقد المصباح حتى لا يتكاثر الناموس ولذلك لم ير النظرة التى وجهتها له تيريز . اعلن انه قد استعاد فعلا شهيته للطعام وان طبيب بوردو قد رد اليه الحياة فعلا .

***

— هل رأيت جان ازيفيدو بعد ذلك مرات عديدة ؟ لقد غادر ارجلوز فى منتصف اكتوبر ... وربما قمنا معا بخمس او ست نزهات .. لا أقف منها الا عند تلك التى انهمكنا خلالها معا فى تحرير الرسالة الى آن . لقد كان الشاب الساذج يتوقف عند عبارات يعتقد ان فيها العزاء كله ، بينما لم اكن ارى فيها ، من غير ان اذكر له شيئا ، الا القسوة والفظاعة . على أن غدواتنا وروحاتنا الأخيرة تختلط معا فى ذكرى وحيدة . كان جان ازيفيدو يصف لى باريس وصداقاته فيها فكنت اتخيل ذلك كله كمملكة واسعة يسودها قانون عام يقضى بان يتحول كل انسان الى ما هو عليه . انك هنا مقضى عليك بان تعيشى فى الكذب حتى الموت . هل كان كلامه هذا عن قصد ؟ انى ما كنت لأستطيع سماع عبارته هذه من غير ان اشعر بالاختناق . قال لى :

— انظرى الى هذه الصفحة الواسعة الرتيبة من الجمد وقد حبست فى صلبها كل هذه النفوس هنا . قد تحدث أحيانا فجوة تطل من خلالها المياه السوداء . لقد تخبط انسان واضطرب ثم اختفى وعادت القشرة السميكة تلتئم اطرافها من جديد . ذلك ان كل انسان هنا وفى كل مكان آخر يولد ومعه قانونه الخاص . هنا وفى كل مكان آخر القدر مقدور بصاحبه . ومع ذلك يجب على الجميع ان يستسلموا لقضاء واحد كئيب . قد يبدى البعض مقاومة ومعاندة لهذا القضاء فتنشأ من ذلك تلك المآسى التى تخفيها العائلات فى طى الكتمان . انهم يقولون هنا :

. يجب بسط ستار الصمت ...»
- لقد اجبته على الفور :

- حقا ، لقد سعيت احيانا الى التعرف على شىء من اخبار ذلك العم الأعلى أو تلك الجدة البعيدة ممن اختفت صورهم الفوتوغرافية من كل ما لدينا من مجموعات ، فما فزت من ذلك ابدا بطائل ، اللهم الا مرة واحدة حيث عثرت على هذا الاعتراف الذى يقول :
- لقد اختفى ... لقد ازالوه من الوجود ...

- هل كان جان ازيفيدو يخشى على من هذا القدر المحتوم ؟ لقد اكد لى انه ما كان ليفكر ابدا فى محادثة آن عن هذه الاشياء ، فهى على الرغم من شهوتها الجامحة لا تعدو ان تكون نفسا بريئة لاتكاد تعرف الثورة والعناد ، ومآلها عما قريب الى العبودية والخضوع .. اما انت فانى اتحسس فى كل كلمة تقولينها حاجة الجائع الظامىء الى الصدق والصراحة .

هل يجب على ان انقل هذه الاحاديث نقلا كاملا الى برنار ؟. من الجنون ان اتوقع منه فهما صحيحا لذلك كله . على انه يجب ان يعرف انى لم استسلم بغير مقاومة وكفاح . اذكر انى عارضت الشاب بقولى انه يكسو بالعبارات البارعة احط ميول الانحدار واحقرها . بل لقد استعنت فى ذلك بما كنت اذكره من القراءات الأخلاقية التى كانوا يفرضونها علينا فى المدرسة الثانوية .

قلت له :
- ما معنى ان يتحول الانسان الى ما هو عليه ؟ اننا لا نصل الا الى مستوى ما نخلقه بانفسنا لانفسنا .

لا حاجة الى مزيد من الشرح هنا وربما كان الشرح واجبا عند مقابلة برنار .

كان ازيفيدو ينكر ان هناك سقوطا اسوا من تنكر الانسان لذاته . برغم انه ما من بطل ولا من قديس الا ودار ولف حول نفسه اكثر من مرة ، الا وبدأ اولا بالوصول الى اقصى حدود نفسه.
كان يكرر قوله :

- يجب على المرء ان يتجاوز طاقة نفسه ليجد السبيل الى الله . اما قبول المرء لنفسه على علاتها فهو امر يقضى على الأخيار منا بأن يواجهوا بعضهم بعضا فى قتال يخوضونه مكشوفى الوجوه غير متخذين الى الخدعة سبيلا . لذلك كثيرا ما ينتهى الأمر بهؤلاء المتحررين الى اعتناق أضيق الديانات رحابا .

- من الخير الا اناقش مع برنار استقامة هذا الاتجاه الأخلاقى وصحة فحواه . بل ومن الخير ايضا ان اسلم له بان هذه كلها ان هى الا خزعبلات وسفسطة لا طائل تحتها . ولكن الشىء الذى يجب ان يفهمه وان يجهد عقله فى فهمه هو ، الى اى مدى يمكن لامراة من فصيلتى ان تتأثر بهذه الآراء .

كان برنار يخلع حذاءه فى جانب المطبخ القريب وهو يتحدث باللهجة العامية عن نتيجة صيد اليوم . الحمامات الحبيسة تنتفض داخل الكيس الملقى على المنضدة . كان برنار يأكل ببطء وهو سعيد بشهيته التى عادت اليه ويعد بعناية قطرات دواء (الفاولر) المتساقطة .
كان لا يكف عن ترديد قوله :
- هذه هى الصحة والعافية ..

هناك قدر كبير من النار يلتهب فى المدفأة وما كان عليه بعد الانتهاء من الطعام الا ان يدير مقعده ليواجه الحرارة بقدميه المتنعلتين بالوبر . اغلق عينيه على الجريدة التى كان يقرأ فيها وكنت اسمع احيانا شخيره واحيانا اخرى لا اسمع له أنفاسا .. باليونت تنتقل بعض الوقت فى المطبخ ثم تأتى بالشموع ، وبعد ذلك يسود الصمت ... صمت ارجلوز الرهيب . لا يستطيع من لم يعرف منطقة اللاند القضية ان يتصور هذا الصمت . انه يحيط بالبيت كما لو كان جدارا كثيفا استند الى الغابة التى لا يتنفس فيها مخلوق ، اللهم الا تلك البوم المولولة التى تذكرنا فى جنح الليل البهيم بالانات المكبوتة فى صدورنا .

- لم اشعر كل الشعور بهذا الصمت الثقيل الا بعد رحيل ازيفيدو . فطالما كنت اعرف ان الصباح سيأتينى بجان مرة أخرى،

كنت أرى الظلمات المتراكمة في الخارج وقد زالت عنها الرهبة وفقدت كل ما فيها من أخطار . كان رقاده على القرب يملأ الكون حولي ويبدد الليل الكثيف . ولكن منذ ان غادر ارجلوز على اثر لقائنا الأخير الذي واعدني فيه على اللقاء بعد عام وهو يعرب عن أمله في ان يراني بعد تلك المدة وقد أصبحت قادرة على انقاذ نفسي ...

— ما زلت حتى اليوم أجهل هل كان كلامه هذا عفوا ، أو انه كان يرمي به الى غرض في نفسه ، واني لأميل الى الاعتقاد ان هذا الباريسي لم يكن يطيق الصمت ، صمت ارجلوز ، وانه انما كان يعشق في مستمعه الوحيد — منذ ان غادرني وانا اشعر بنفسي أسير في نفق لا نهاية له واخوض في ظلام متكاثف متزايد ، وكثيرا ما تساءلت ، هل قدر لي أن أصل الى الهواء الطلق قبل أن يحل بي الاختناق ؟ الى ان اضع حملي في يناير لن يحدث شيء جديد ...

***

هنا ترددت تيريز . انها تحاول ان تبتعد بفكرها عما حدث في ذلك البيت في ارجلوز بعد سفر جان بيومين . قالت لنفسها :

— لا ، لا ، لا علاقة لذلك بما يجب على ان أشرحه لبرنار بعد حين . ليس لدى وقت اضيعه في المسالك التي لا تؤدي الى شيء

ولكن الفكر عنيد يأبى الا ان يمرح حيث شاء . لن تخرج تيريز من ذاكرتها تلك الليلة من شهر اكتوبر . في الدور الأعلى كان برنار يخلع ملابسه بينما كانت تيريز تنتظر الى ان تهمد الشعلة الملتهبة في المدفأة قبل ان تلحق به . انها سعيدة اذ اتيحت لها لحظة تبقى فيها بمفردها وتفكر : ماذا يفعل جان ازيفيدو في تلك الساعة ؟ لعله يحتسي الخمر في تلك الحانة الصغيرة التي طالما حدثها عنها ... أم لعله ، والليلة على ما هي عليه من جمال ، يذرع الطرقات في سيارة ومعه صديق وسط غابة بولونيا المقفرة ... وربما كان يعمل على منضدته بينما باريس تعج وتصخب على البعد ... الصمت ... انه هو الذي يخلقه لنفسه ، هو الذي يستخلصه من وسط ضجيج العالم ... لم يكن مفروضا عليه كذلك الصمت الذي

تئن منه تيريز وتختنق به . هذا الصمت ، انه من خلقه هو ، ولا يمتد الى ابعد من ضوء المصباح ولا الى ابعد من الارفف المحملة بالكتب . هكذا كانت تيريز تفكر ، واذا بالكلب ينبح ثم يغمغم ، واذا بصوت متهالك يأتي من الردهة ويدخل الهدوء الى قلبها : آن دي لاتراف فتحت الباب . لقد عادت الى سانت كلير راجلة في الليل ، وقد اثقلت حذاءها أحمال من الطين . كانت عيناها تلمعان في وجهها الشاحب كان السنين الطوال قد تركت عليه آثارها . القت بقبعتها على احد المقاعد وسألت :

— اين هو ؟

ظن تيريز وبرنار بعد كتابة الرسالة ان الأمر قد انتهى . ولم يدر بخلدهما ان آن قد تصر على رأيها ولا ترجع عنه ، كما لو كان الانسان يلين أمام العقل والتعقيل عندما يتعلق الأمر بحياته نفسها . لقد استطاعت الافلات من رقابة امها والقت بنفسها في احد القطارات ، وعلى الطريق المظلم المؤدي الى ارجلوز استضاءت بانعكاسات السماء الصافية المتسللة من بين قمم الأشجار .

— ان كل ما يهمها هو أن تراه ثانية . فاذا ما رأته سيعود لها سلطانها عليه . يجب أن تراه .

كم من مرة سقطت اعياء في الطريق والتوت قدمها في الاخاديد، فقد كانت تتعجل الوصول الى ارجلوز . هاهي ذي تيريز تخبرها ان جان قد رحل ، انه الآن في باريس . آن أشارت برأسها علامة النفي . انها لا تصدق . ان بها حاجة الا تصدق حتى لا تنهار اعياء ويأسا :

— انك تكذبين كما كذبت دائما .

واذ اخذت تيريز تعترض محتجة قالت آن :

— آه ، لقد توفر لك انت روح الاسرة ! انك تتظاهرين بالتحرر واتساع الافق ، ولكن منذ زواجك أصبحت فجأة من نساء العائلة .. نعم ، نعم ، مفهوم ... لقد ظننت انك تصنعين بي خيرا .. لقد كنت تخونينني لتنقذيني ... اني اعفيك من الشرح

أسرعت تفتح الباب فسألتها تيريز الى أين هى ذاهبة ؟

ــ الى فلميجا ، فى بيته ..

ــ أكرر لك القول انه رحل منذ يومين .

ــ لا اصدقك .

خرجت آن واسرعت تيريز توقد القنديل المعلق فى الدهليز ولحقت بها .

ــ انك تضربين على غير هدى يا صغيرتى آن . هذا طريق بيورج كما تعلمين . فلميجا فى هذا الاتجاه .

اخترقتا الضباب المتصاعد من الحقول . استيقظت الكلاب هاهى ذى شجيرات البلوط فى فلميجا. هذا هو بيته انه ليس راقدا وانما هو ميت . دارت آن حول هذا القبر الخالى وطرقت الباب بكلتا قبضتيها . وقفت تيريز لا تتحرك وقد وضعت القنديل على العشب . رات شبح صديقتها الخفيف يلتصق بكل نافذة من نوافذ الدور الارضى . لاشك ان آن تكرر فى تلك اللحظات اسما من غير ان تصرخ به ، لعلمها ان الصراخ لا يجدى فتيلا . حجبها البيت لحظة ثم عادت الى الظهور وارتمت على عتبة الباب عاقدة ذراعيها حول ركبتيها ، وقد اخفت بينهما وجهها . رفعتها تيريز وجذبتها خلفها . اخذت آن تكرر وهى تتعثر « ساذهب غدا صباحا الى باريس . ليست باريس كبيرة الى هذا الحد . ساعثر عليه فى باريس ... »

قالت هذا بصوت الطفلة التى كفت عن المقاومة واسلمت امرها الى الاقدار .

كان برنار ، وقد ايقظته اصواتهما ، ينتظرهما فى الصالون . ان تيريز تخطىء اذ طردت من ذاكرتها ما حدث فى تلك الليلة بين الأخ واخته . هذا الرجل القادر على القبض بقوة على يد هذه الصبية المنهوكة ، القادر على جذبها الى داخل احدى حجرات الدور العلوى والقادر على اغلاق الباب عليها وحبسها ، هذا

الرجل هو زوجك يا تيريز ، برنار الذى سيصبح بعد ساعتين القاضى الذى يحكم عليك . ان روح العائلة هو الذى يقوده وينقذه من كل تردد . هو يعرف دائما وفى كل الظروف ما يلزم عمله من اجل مصلحة العائلة . انك فى غمرة القلق والتوجس تعدين دفاعا طويلا ، ولكن الرجال الذين لا مبادىء لهم هم وحدهم الذين يستطيعون ان ينزلوا عن رأيهم امام الأسباب التى يبديها الآخرون. ان برنار يهزا بالحجج التى تبدينها ، انه يقول : انى اعلم بما يجب على عمله ..

انه يعرف دائما ما يجب عليه عمله . واذا ما تردد فى ذلك قال:

ــ لقد تحدثنا عن ذلك فى العائلة ورأينا ان ...

كيف يسوغ لك ان تشكى فى انه قد اعد قراره فعلا ؟ لقد تقرر مصيرك الى الابد . خير لك اذن ان تنامى .

- ٨ -

بعد ان أعاد آل دى لاتراف آن مهزومة مستسلمة الى سانت كلير لم تغادر تيريز ارجلوز حتى قرب موعد وضعها . عرفت الصمت الحقيقى هناك فى تلك الليالى التى لا نهاية لها من ليالى نوفمبر . ارسلت رسالة الى جان ازيفيدو ولم تتلق عنها ردا . لاشك انه راى ان تلك القروية لا تساوى ما قد يلقاه فى مكاتبتها من ملل . انها امراة حامل والمراة الحامل لا توحى بشىء من الذكريات الجميلة . لعله ، على البعد ، قد حكم على تيريز بالتفاهة هذا الغبى الذى ربما استوقفته مشكلات المواقف الكاذبة . ولكن ما الذى يستطيع أن يفهمه هذا الغر من تلك البساطة الخداعة ومن تلك النظرة المباشرة ، ومن تلك الحركات التى لم يخالطها قط تردد . انه ، فى الحق ، كان يعتقد انها كالصغيرة آن ، قادرة على ان تأخذ عليه كلمته وان تترك كل شىء لتتبعه . ان جان ازيفيدو يتحاشى النساء اللاتى يسارعن الى القاء أسلحتهن لكى يتمكن المهاجم من رفع الحصار بغير عناء . انه ماكان يخشى من النصر الا ثمرته . على ان تيريز كانت تجهد نفسها لتعيش فى دنيا هذا الشاب ، غير ان الكتب التى طالما حدثها عنها جان فى اعجاب والتى احضرتها من بوردو بدت لها غير مفهومة . ما اقسى الفضاء الذى تعيش فيه

تيريز ! ... لا جدوى من ان تنكب على اعداد الاقمطـــة اللازمة لمولودها ، فقد كانت مدام دى لاتراف تقول ، انها لم تخلق لمثـل هذا العمل . كثيرات هن النساء اللواتى يمتن فى الريف فى عملية الوضع . ولطالما ابكت تيريز العمة كلارا ، وهى تؤكد لهـا انهـا ستنتهى الى ما انتهت اليه امها من قبل ، وانها لن تفلت من الموت . كانت تضيف الى ذلك انها لا يهمها ان تموت . كذب . انها لم ترغب قط فى الحياة قدر رغبتها فيها فى ذلك الوقت كما ان برنار لم يظهر نحوها قط رعاية وعناية قدر ما يظهره لها الآن . « ان عنايته لم تكن لى انا وانما لما كنت احمله بين احشائى » كثيرا ما كان يقول لها بصوته الاجش الكئيب :

— كلى من هذا الصنف ... لا تأكلى من السمك ... لقد مشيت كثيرا اليوم .. لم تكن نصائحه هذه لتؤثر فى الا بقدر ما يؤثر اللوم فى المرضعة الغريبة التى يعيبون عليها طبيعة لبنها . ان ما يحترمه آل لاتراف فى شخصى هو الوعاء المقـدس ، ذلك المستقر الذى تستكن فيه ذريتهم . لست اشـك انهم ، اذا لزم الامر ، يضحون بى من اجل هذا الجنين . لم اكن فى نظر الاسرة الا الفرع ولم يكن يهم غير الثمرة المعلقة باحشائى .

***

كان عليهـا ان تعيش حتى نهاية ديسمبر فى ظلام . الم تكف اشجار الصنوبر التى لا عدد لها تقيم حول البيت المعتم سياجات من افرعها الكثيرة ، حتى يأتى المطر المنهمر فيضيف الى هـذه السياجات سياجات جديدة . وعندما اوشك الطريق المؤدى الى سانت كلير ان يصبح غير صالح للسير فيه نقلونى الى القرية فى البيت الآخر هناك الذى لا يقل ظلاما عن بيت ارجلوز الا قليلا . اشجار الحور العتيقة المنتصبة وسط الميدان تتنـازع مع رياح الشتاء وريقاتها الاخيرة . لم تكن العمة كلارا لتستطيع الحياة فى غير ارجلوز ، لذلك كثيرا ماكانت تقطع الطـريق الى فى الطقس العاصف على عربتها الصغيرة التى بنيت هى الأخرى « على قدر الطريق » . كانت تحضر لى تلك الحلوى التى طالما احببتهـا وانا بنت صغيرة ، والتى كانت تظن انى مازلت أحبها الآن : تلك الكرات

من دقيق الشوفان المعجون بالعسل ، وتلك الفطائر التى تجيد صنعها . لم اكن ارى آن الا فى اوقات الطعام ولم تكن هى توجه الى الحديث . يبدو انها استسلمت وكفت عن المقاومة ، ففقدت بذلك حيويتها جميعا ، كان شعرها المشدود الى الخلف يكشف عن اذنيها القبيحتين الشاحبتين . لم يكن احد يذكر اسم ابن ديجلهيم ، غير ان مدام دى لاتراف قالت ان ابنتها وان لم تبد موافقتها بعد لم تكن قد اعلنت رفضها تماما . ما اصدق الحكم الذى اصدره عنها جان ! لقد كفى قليل من الزمن لوضـع اللجم حول عنقهـا ولحملها على السير كما يشاءون . برنار لم يكن فى خير حالاته ، لأنه عاد الى احتساء الشراب قبل تناول الطعـام . ما هى الاحاديث التى كان هؤلاء القوم يتبادلونها من حولى ؟ انهم يتحدثون كثيرا عن قسيس القرية . فقد كنا ، كما اذكر ، نقطن فى مواجهة الكنيسة . لقد تساءلوا مثلا لماذا اجتاز الميدان اربع مرات فى ذلك اليوم ، وكان فى كل مرة يعود من طريق غير التى سلكها من قبل .

وجهت تيريز ، بناء على ما سمعته من جان ازيفيدو ، اهتماما خاصا الى هذا القسيس الذى مازال فى ريعان الشباب ، والذى لم يقم لنفسه اتصالات بأبناء ضيعته ، فراوا فيه لذلك رجلا متعجرفا متعاليا : « ليس هذا هو الصنف الذى يصلح هنا ... » . فى خلال زياراته القليلة لآل لاتراف لاحظت تيريز صدغيه الابيضين وجبهته العالية — أليس له من صديق ؟ كيف يقضى امسياته ؟ ما الـذى حمله على اختيار هذا النوع من الحياة ؟ قالت مدام دى لاتراف :

— انه رجل مستقيم يؤدى العبادات كل مساء ، ولكن يعوزه الاقتناع . انى لا ارى فيه ما يقال عنه ، الرجل التقى الورع . ثم اوجه النشاط انه يهملها تماما .

عابت عليه الغاء فرقة الموسيقى المحلية ، كمـا ان الاهالى لا يكفون عن الشكوى من انه لا يصاحب التلاميذ الى ملعب الكرة .

انه لشيء جميل من القسيس الا يرفع انفه عن الكتب ، ولكن الرعية سرعان ما تضيع » اخذت تيريز تتردد على الكنيسة لتستمع الى عظاته :

– لقد اقبلت يا صغيرتي في الوقت الذي تبيح لك فيه حالتك الامتناع عن الحضور .

لقد كانت الخطب التي يلقيها هذا القسيس حول العقيدة او الاخلاق ذات طابع عام ، ولكن ما كان يعني تيريز منها هو نبرة الصوت ونبل الاشارة . ولكن بعضا من كلماته كان بها معنى عميق لعله يستطيع هو ان يجد الحل لهذا العالم المضطرب الذي يعتمل في نفسها . انه يختلف عن الآخرين اذا اضاف الى الوحدة الداخلية التي يعيش فيها هذا الفضاء الذي تخلقه المسوح حول من يرتديها . اي راحة يستنبعها هذا الرجل من طقوسه اليومية ؟ لقد ودت تيريز لو استطاعت ان تحضر القداس الذي يقيمه في وسط الاسبوع ، حيث تخلو الكنيسة الا من احد الشمامسة وينكفيء هو على كسرة من الخبز يتمتم فوقها ببعض الكلمات . ولكن عملا مثل هذا قد يبدو غريبا في نظر العائلة وفي نظر اهل القرية جميعا اذ يتهمونها عندئذ بالتحول الى طريق الدين .

ايا كانت الآلات التي قاستها تيريز في هذه الفترة ، فان تبرمها

***

ايا كانت الآلام التي قاستها تيريز في هذه الفترة فان تبرمها بالحياة لم يبدا الا في اليوم التالي لوضعها انها لم تعد تطيق الحياة حقا . لم تكن تبدي من ذلك شيئا في مظهرها ، فلا عراك بينها وبين برنار وكان احترامها لاهل زوجها يفوق احترام زوجها لهم هنا كانت تكمن المأساة ، اذ لا يوجد للخصام سبب ، وما كان من المتوقع أن يحدث السبب الذي يمنع هذا الهدوء والترتيب من أن يستمر هكذا حتى الموت . لم تكن تيريز ترى برنار بل ولا أهل زوجها . لم تكن كلماتهم تصل اليها ولم تكن بها حاجة لأن ترد عليهم . هل كان تفكيرهم متجانسا ؟ وهل كانت لغتهم واحدة ؟

انهم يطلقون على الكلمات الهامة معاني تختلف عما تعنيه هي . اذا ما صدرت عنها صرخة صادقة اصطدمت لدى العائلة بجمود مثير ، فقد اتفق الجميع على القول ، انها تهوى الاندفاع في نوبات الغضب .. كانت مدام دي لاتراف تقول : اني اتظاهر بالا اسمع شيئا فاذا تمادت في عدم الاكتراث قالت :

انها تعلم ان شيئا من ذلك لا يؤثر فينا ...

ولكن مدام دي لاتراف لم تكن تطيق من تيريز تظاهرها بالضيق لما يذكره الناس عن الشبه بينها وبين الصغيرة ماري . ان ملاحظات الناس حول هذا الشبه كانت تثير في نفسها من الثورات ما لا تستطيع في كثير من الاحيان اخفاءه . كانت تقول :

– هذه الطفلة لا تشبهني في شيء . انظروا الى هذه البشرة السمراء والى هاتين العينين السوداوين وانظروا الى صدري ، لقد كنت انا طفلة شقراء .

لم تكن تريد بينها وبين ماري شبها . لم تكن ترغب في ان يوجد لها مع هذا الكائن الذي انفصل عنها شيء مشترك . بدات الاقاويل تسري بان عاطفة الأمومة معدومة فيها ، ولكن مدام دي لاتراف كانت تؤكد انها انما تحب ابنتها على طريقتها الخاصة :

– حقا يجب الا تطالبها بالاشراف على استحمامها او بتغيير فراشها ، فهذا من الامور التي لا تطيقها ولكني رايتها تقضي الامسيات الطويلة الى جانب المهد جالسة ، وقد امتنعت عن التدخين تنظر الى الطفلة النائمة .. على ان لدينا خادمة امينة ... ثم هناك آن ... يالها من فتاة ... اقسم لكم انها ستصبح يوما اما مثالية صغيرة ...

منذ ان اخذت الطفلة تطلق انفاسها في المنزل عادت آن الى الحياة ، ان المهد يجتذب اليه النساء دائما .. ولكن آن اكثر من غيرها كانت تتناول الطفلة وفي قلبها سرور عميق . ولكي تجد لنفسها حرية الوصول الى الصغيرة ، عادت الى مصالحة تيريز من غير ان تبقى على شيء من مودتهما القديمة فيما عدا المجاملات العائلية . واكثر ما كانت تخشاه الشابة من تيريز غيرتها كأم .

– ان الطفلة تعرفني أكثر مما تعرف امها . انها تضحك كلما

ترانى . فى يوم كنت احملها بين ذراعى واذا بها تصرخ صراخا عاليا
عندما جاءت تيريز لتاخذها . انها تفضلنى على من سواى حتى
لاشعر بالحرج أحيانا . . .

لم يكن بآن حاجة لاى شعور بالحرج ، فقد كانت فى هذه
المرحلة من حياتها بعيدة عن ابنتها بعدها عن كل شىء آخر ، كانت
ترى الناس والأشياء وجسمها ذاته وعقلها نفسه سرابا وهباء يهيم
بعيدا عنها . كان برنار وحده هو الذى يشعر وسط هذا الفراغ
بحقيقة الوجود المخيف . جسمه الضخم وصوته الانفى واوامره
الصارمة ، كل شىء فيه ينبىء عن الرضا . لم يكن يفهم ما معنى
الخروج من العالم . كيف يتم هذا الخروج ؟ والى اين تذهب ؟
بشائر الحر بدأت تثير تيريز . ما من شىء ينبهها الى ما هى مقدمة
عليه من عمل . ماذا جرى فى تلك السنة ؟ انها لا تذكر من ذلك
شيئا ، لا حوادث ، لا عراك . كل ما تذكره انها شعرت نحو
زوجها فى يوم عيد الغفران بكراهية لم تشعر بمثلها من قبل .
وقفت خلف النافذة تنظر الى الموكب يمر امامها . يكاد برنار ان
يكون الرجل الوحيد السائر خلف مظلة الاحتفال . فى لحظات
اقفرت فيها القرية ، كما لو كان اسدا وليس حملا ، ذلك الذى
اطلقوه فى الطرقات . كان الناس ينزوون فى الاركان حتى لايضطروا
الى خلع قبعاتهم او الى الركوع عند مرور الموكب . بعد زوال
الخطر تعود الأبواب فتفتح الواحد بعد الآخر . نظرت تيريز الى
القسيس وهو يسير مغمض العينين رافعا بين يديه هذا الشىء
الغريب . كانت شفتاه تتحركان . مع من يتكلم وهو فى هذا الحزن
العميق ؟ بعده مباشرة يجىء برنار ، انه — كما يقول — يؤدى
واجبه .

***

تتالت الاسابيع من غير ان تسقط قطرة واحدة من المطر وكان
برنار يعيش فى رعب خوفا من الحرائق ، وقد عاودته من جديد علة
القلب . لقد احترقت خمسمائة هكتار فى ناحية لوشا .

— لو ان الريح هبت شمالا لضاعت كل اشجار الصنوبر فى
باليزاك .

لم تكن تيريز تدرى ما الذى تنتظره من تلك السماء التى
لا ترحم . الن يسقط المطر ابدا ؟ قد ياتى يوم تضطرم فيه الغابة
من كل جانب ، ولن تسلم القرية نفسها من الحريق . لماذا
لا تندلع الحرائق فى قرى اللاند ؟ اليس من الظلم ان تختار النيران
دائما اشجار الصنوبر طعاما لها ، ولا تختار الرجال ابدا ؟ النقاش
لا ينتهى بين افراد العائلة حول اسباب الكارثة . هل هى سيجارة
ملقاه ؟ ام هو الاهمال والتراخى ؟ لقد رأت تيريز فى منامها انها
استيقظت ليلة وخرجت من الدار وتوجهت الى اكثر اجزاء الغابة
ازدحاما بالهشيم والقت سيجارتها وانتظرت الى ان ملأ الدخان
الكثيف السماء فى الفجر .. ولكنها طردت هذا الخاطر من ذهنها
فهى تحمل فى دمائها حبا عميقا لأشجار الصنوبر . ان مايملأ قلبها
من كره ليس موجها الى الأشجار .

هاهى ذى فى اللحظة التى تواجه فيها الفعلة التى اقترفتها . اى
تعليل لها تقدمه الى برنار ؟ ليس امامها الا ان تعيد الى ذاكرته ،
نقطة بعد نقطة ، كيف حدث الامر . كان ذلك يوم الحريق الكبير
الذى اندلع فى مانو . الرجال يدخلون الى غرفة الطعام حيث كانت
الاسرة تتناول الافطار على عجل . بعضهم يؤكد ان النار تبدو
بعيدة جدا عن سانت كلير والبعض الآخر يصر على ضرورة دق
أجراس الكنائس ايذانا بالخطر . عصارة الاشجار المحترقة تملأ
جو ذلك اليوم الملتهب ، بينما بدت عين الشمس وكأن عليها غمامة
من الوسخ . تذكرت تيريز ما كان عليه برنار فى تلك اللحظة . لقد
كان مستديرا براسه يستمع الى البيانات التى ينقلها اليه باليون ،
بينما تاهت يده الضخمة المكسوة بالشعر فوق حافة الكوب ،
وقطرات « الفاولر » تتساقط فى الماء . تجرع الدواء دفعة واحدة ،
ولم تتنبه تيريز وقد اذهلتها الأحداث ، فلم تقل له انه ضاعف
الجرعة المعتادة . غادر الجميع المائدة ولم يبق الا هى فاخذت تقشر
حبات اللوز الاخضر فى فتور وانصراف عما يجرى . ان الكارثة
التى ذعر لها الجميع لا تعنيها فى شىء فليس يعنيها الا ما يدور فى
نفسها من مآس . لم تدق اجراس الكنائس معلنة حالة الخطر ،
ولم يلبث برنار ان عاد :

— هـذه المرة كنت انت على صواب فى عـدم الانزعاج .. ان الحريق فى جهة مانو بعيدا عنا ...

ثم سأل :

— هل تناولت دوائى ؟

ومن غير ان ينتظر الرد على سؤاله عاد فأسقط من قطـرات الدواء فى الكوب وشرب . ولم تتلفظ بكلمة تكاسلا منها بلا شـك وارهاقا — ما الذى تأمل فيه فى تلك اللحظة ؟

— من المستحيل ان اكون قصدت عامدة الى التزام السكوت.

ولكنها فى تلك الليلة ، وهى واقفة الى جوار فراش برنار،الذى كان يتقيأ امعاءه ويبكى ، سألها الدكتور بيديمى عما حدث فى خلال النهار ، لم تذكر شيئا مما راته وهى على مائدة الطعام . وما كان ايسر لها لابعاد الشـبهات عنها ان تلفت نظر الطبيب الى كمية الزرنيخ التى تناولها برنار . كان فى استطاعتها ان تقول مثلا :

— لم أتنبه الى ذلك على التـو .. كنا جميعـا فى ارتبـاك جنونى بسبب خطر الحريق.. ولكنىأؤكد لكم الآنانه تناولجرعة مضاعفة ... » لم تقل شيئا وظلت صامتة . هل شـعرت فى نفسها بوجود دافع .. مجرد دافع الى الكلام ؟ ان ما حدث فىأثناء الافطار وكان فى علمها من غير ان تدرى ، بدا يبرز بعـد ذلك من قرارة نفسها مبهما غامضا فى اول الامر ، ولـكنه واضـح بعض الوضوح فى شعورها .

بعد انصراف الطبيب نظرت تيريز الى برنار وقد استسـلم اخيرا للنوم . قالت لنفسها .

— لا يوجد شىء يثبت ان ما حدث له كان نتيجة « ذلك الأمر» لعلها ازمة من ازمات التهاب الزائدة الدودية على الرغم من عـدم وجود اغراض اخرى تدل عليها ، أم لعلها حالة حمى خبيثة .. ولكن برنار سرعان ما عاد الى حالته الطبيعية بعد ذلك بيـومين. « هناك احتمال كبير ان يكون ما حدث هو نتيجة ذلك الأمر ». هل هى واثقة من ذلك ؟ كلا . انها تود لو استطاعت ان تستوثق منـه . « نعم . لم اكن اشعر ابدا انى فريسـة اغراء فظيع . كل

ما هنالك انه حب استطلاع — ربما كان على شىء من الخطـورة — اردت ان اشفيه فى نفسى . فى اليوم الاول قبل ان يدخل برنارالى غرفة الطعام اسقطت فى كوبه قطرات من (الفاولر) . وانى لاذكر الآن اننى كررت القول لنفسى : هذه المرة الوحيـدة فقط حتى استوثق من الأمر . سأعرف اذا ما كان هذا هو الذى سـبب له ما حدث . مرة واحدة وبعدها ينتهى الأمر »

* * *

هدأ القطار من سرعته واطلق صفارة طويلة ثم عاد يستأنف السير . مصباحان او ثلاثة فى وسط الظلام . انها محطة سانت كلير لم يعد لدى تيريز شىء تتفحصه . لقـد هوت فى جوف الجريمة العميق فابتلعتها الجريمة . اما ماحدث بعد ذلك فهو معلوم لدى برنار بقدر ما هو معلوم لديها : لقد عاوده الداء فجأة وسهرتتيريز الى جوار فراشه ترعاه ليلا ونهارا على الرغم من حالة الأجهاد الشديد التى كانت تعانيها ، وعلى الرغم من عزوف نفسها عن كل طعام .

لقد حاول برنار ان يحملها على تناول دواء الفاولر لتقوى وحصلت من الدكتور بيديمى على تذكرة بذلك .

ياله من ساذج هذا الطبيب !

لقد كان يبدى دهشته لهذا السائل الأخضر الذى يلفظه برنار من احشـائه ، ولم يكن يعرف سببا لهذا التنـافر الواضح بين نبض المريض ودرجة حرارته . لطالما لاحظ فى الكثير من حالات الباراتيفويد وجود النبض الهادىء ، على الرغم من ارتفاع درجة الحمى . ولكن ما معنى هذه النبضات المتتابعة السريعة مع هذه الحرارة التى تقل عن الدرجة العادية ؟

انها حالة حمى خبيثة . لاشك فى ذلك ، هى الحمى ، أن فيها تفسيرا لكل مايرى .

فكرت مدام دى لاتراف فى استحضار طبيب كبير لاستشارته ولكنها لم تكن ترغب فى اخـراج الدكتور بيديمى هذا الصديق القديم ، هذا بينما تيريز تخشى على برنار من اخطار الوهم والخوف على حياته . ولكن فى منتصف اغسطس وعلى اثر ازمة اكثر حدة

من سابقاتها أعرب الدكتور بيديمى من تلقاء نفسه عن رغبته فى الأستعانه باحد زملائه .

من حسن الحظ بدأت حالة برنار فى التحسن من اليوم التالى وما أن انقضت اسابيع ثلاثة حتى اخذ الجميع يتكلمون عن النقاهة .

وقال الدكتور بيديمى :

ــ لقد نجوت بأعجوبة . لو أن هذا الطبيب الكبير حضر الى هنا لأختص نفسه بالفخر كله .

طلب برنار أن ينتقل الى ارجلوز موقنا انه قد يشفى تماما عند حلول موسم صيد الحمام البرى .

اجهدت تيريز نفسها كثيرا فى تلك الفترة ، فقد اصيبت العمه كلارا بأزمة روماتزمية حادة اقعدتها فى فراشها ، ووقع الحمل كله على كاهل المراة الشابه . مريضان وطفلة فى حاجة الى خدمة ورعاية بالأضافة الى المهام التى تركتها العمة كلارا معلقة تتطلب الحل .

بذلت تيريز كثيرا من حسن النية والأجتهاد فى القيام مقامها بالخدمات التى كانت تؤديها للفقراء والبؤساء عن اهل اوجلوز ، طافت ببيوت المزارعين وعنيت كما كانت تفعل عمتها باعداد تذاكر الدواء ، ودفعت من جيبها ثمن ذلك كله .

لم تفكر فى التاسى على بقاء منزل فلميجا مغلقا . انها لم تعد تمر بذاكرتها على جان ازيفيدو ولا على اى انسان آخر فى الوجود لقد اندفعت بمفردها فى نفق مظلم غلبها فيه الدوار ، وها هى ذى قد وصلت الى أحلك مراحله ، فيجب عليها أن تقطعه بلا تفكير كما يفعل الحيوان الأعجم يجب عليها أن تخرج من هذه الظلمات الدامسة ، من هذا الدخان الحالك ، كى تصل الى الهواء الطلق ، سريعا ، سريعا .

فى اوائل ديسمبر عاود برنار الداء فاقعده عن الحركة . قام من نومه صباح احد الأيام وبه رعشة ، وقد جمدت ساقاه وانعدم منهما الاحساس . ما الذى حدث بعد ذلك ؟ جاء الطبيب من بوردو لتقديم مشورته ، استقدمه مسيو دى لاتراف . فحص

المريض ثم التزم الصمت طويلا . كانت تيريز ممسكة بالمصباح ومازال باليونت يذكر انها كانت شاحبة الوجه فى لون غطاء السرير الابيض او اكثر منه بياضا . الدكتور بيديمى على حافة السلم، حيث لا يصل الا ضوء ضئيل ، وقف يشرح لزميله وقد خفض من صوته بسبب وجود تيريز على مقربة تتسمع ، قال ان الصيدلى دراكى اراه تذكرتين من تذاكره بهما تزوير ظاهر . فى احداهما اضافت اليد الاثيمة عبارة « شراب فاولر » وفى الاخرى اضيفت جرعات كبيرة من الكلوروفورم والديجيتالين والاكونيت .. هاتان التذكرتان جاء بهما باليون الى الصيدلية مع كثيرات غيرهما . لقد شعر دراكى بالخشية بعد أن صرف هذه الكميات الكبيرة من السموم ، فهرول مسرعا فى اليوم التالى الى بيديمى يستوضحه الامر ... نعم ان برنار يعرف هذا كله ، كما تعرف تيريز ايضا . جاءت عربة اسعاف ونقلته على جناح السرعة الى بوردو حيث دخل احدى العيادات ، ومنذ ذلك اليوم اخذت صحته تتحسن . بقيت تيريز بمفردها فى ارجلوز ، ولكنها على الرغم من هذه الوحدة كانت تلحظ من حولها ضجة كبرى . انها كالحيوان القابع يستمع الى ضجيج كلاب الصيد تقترب منه . انها تشعر بالتعب والاجهاد كما لو كانت خارجه لتوها من سباق جنونى مرير ، كما لو كانت ، وهى على بعد خطوة من الهدف وقد مدت يدها لتلتقطه ، قد وجدت نفسها ملقاة على اديم الارض مكسورة الساقين . لقد جاء اليها ابوها فى احدى الامسيات فى اواخر الشتاء متضرعا اليها ان تبرىء نفسها مما حدث . مازال فى الامكان انقاذ كل شىء . لقد قبل بيديمى ان يسحب شكواه ـــ هو يقول انه لم يعد يذكر اذا ماكان قد كتب احدى هذه التذاكر كلها بيده . أما عن الاكونيتين والكلوروفورم والديجيتالين فهو لايمكن أن يكون قد وصف منها جرعات بهذا الحجم الكبير ، ولكن مادامت لم تظهر آثار لاى منها فى دم المريض .

تذكرت تيريز هذا الحديث مع ابيها بالقرب من فراش العمة كلارا . نار الخشب فى المدفاة تضىء الحجرة فلم يكن اى منهما يرغب فى ضوء المصباح . كانت تشرح بصوت رتيب ، صوت الطفل

الذى يكرر درسا حفظه ، (وقد حفظت هذا الدرس طوال لياليها التى جافاها فيها النوم) فتقول :

— لقد قابلت على الطريق رجلا ليس من أهل ارجلوز . قال لى هذا الغريب ، انى مادمت ابعث رسولا الى داركى فلربما قبلت أن اتولى عنه صرف تذكرته . انه مدين لداركى فى بعض المال ولا يرغب فى مواجهته فى الصيدلية .. لقد وعدنى بالحضور الى المنزل لاخذ الدواء ولكنه لم يترك لى لا اسما له ولا عنوانا .

— ابحثى لك عن رواية اخرى ، ياتيريز ، اتوسل اليك باسم العائلة ابحثى لك عن رواية اخرى ايتها التعسة ..

اندفع الأب لاروك يكرر قوله هذا وتوسلاته امام ابنته فى اصرار وحنق ، بينما العمة كلارا وقد انتصبت قليلا فى فراشها من غير أن تسمع شيئا مما يدور من حديث ، ولكنها شعرت بشىء قاتل فظيع يهدد تيريز ، أخذت تردد فى صوت خافت متسائلة :

— ما الذى يقوله ؟ ماذا يريدون منك ؟ لماذا يرغبون فى ايذائك ؟

وجدت تيريز من القوة مايكفى للابتسام لعمتها وضم يدها بين كفيها ، وكالطفلة الصغيرة التى تستعيد درسا فى الدين راحت تلقى كلماتها :

انه رجل على الطريق . كان الظلام حالكا فلم اتبين وجهه . لم يقل لى فى اى مزرعة يقطن . فى ليلة أخرى جاء واخذ الادوية . لسوء الحظ لم يره احد ممن فى البيت ..

— ٩ —

وصل القطار آخر الامر الى سانت كلير . لم يعرف تيريز احد عند نزولها من العربة . بينما ذهب باليون لتسليم التذكره التى سافرت بها ، دارت هى حول مبنى المحطة ، ومن خلال اكوام الواح الخشب المتراصة وصلت الى الطريق حيث وقفت العربة تنتظر .

هذه العربة اصبحت الآن مأوى لها على الطريق الملىء بالاخاديد والحفر . فليست تخشى من مقابلة احد . ان قصتها كلها التى

اعادت بناءها فى عناء والم تنهار . لم يبق فى ذهنها شىء من هذا الاعتراف الذى اعدته . لا . لم يعد لديها دفاع تبديه ، بل ولا سبب واحد تتذرع به . لعل ايسر الامور عليها ان تصمت تماما او ان تجيب على قدر ما قد يلقى عليها من اسئلة — ما الذى يمكن ان تخشاه ؟ ستمر هذه الليلة كسائر الليالى الاخرى ، وستشرق الشمس غدا . انها على ثقة من النجاة مهما حدث من امر . وما من شىء يحتمل حدوثه اسوا من هذه اللامبالاة من هذا الانعزال الكامل الذى يبعدها عن العالم وعن كيانها نفسه . نعم ، انه الموت فى الحياة . انها تتذوق الموت بقدر ما تتذوقه امراة على قيد الحياة .

* * *

عند منعطف الطريق عرفت عيناها ، وقد تعودتا الظلام ، تلك المزرعة التى تحوى بضعة مساكن خفيضة كانها دواب قبعت لتنام . فى هذا المكان كثيرا ما ارتعبت آن خوفا من الكلب الذى كان يندفع دائما بين عجلات دراجتها ، وعلى مقربة من هذه المزرعة اشجار السنديان التى تظلل الوادى الصغير حيث تهب النسمة العابرة فى ايام القيظ الحارقة ، وحيث كانت الشابتان تجيئان لتتلقى هذا النسيم على وجنتيهما الملتهبتين ، وغلام على دراجته تلمع اسنانه من تحت القبعة الواقية من الشمس ورنين الجلاجل ينبعث ، وصوت الغلام يصيح :

— انظروا ! لقد رفعت يدى الاثنتين عن مقود الدراجة .

هذه الصورة المبهمة ظلت عالقة فى مخيلة تيريز . انها كل مابقى لها من ايامها الماضية لتريح فيها قلبها المضنى من الاجهاد . اخذت تستعيد كالآله كلمات نظمت مقاطعها على وقع عدو الحصان الذى يجر العربة .

— لا جدوى من الحياة .. حياتى فارغة .. وحدة بلا حدود .. قدر لا مفر منه ..

شىء واحد قد يأتى بالنجاة ، ولكن برنار لن يفعله . لو ان برنار فتح ذراعيه من غير ان يلقى سؤالا .. ! لو انها استطاعت ان

تتكىء برأسها على صدر انسان حنون .. ! لو انها استطاعت ان تبكى فى أحضان انسان .. !

رات الربوة التى جلس عليها جان ازيفيدو يوما من ايام الحر الشديد . لقد خيل لها من قبل ان هناك مكانا فى العالم تستطيع عواطفها ان تزدهر فيه وسط اناس يفهمونها ، وربما يقدرونها ويحبونها ! لا ، ان وحدتها الصق بها من التصاق القروح بجسم المجزوم :

— ما من احد يستطيع لى شيئا ... ما من احد يستطيع ضدى شيئا ..

— هذا هو سيدى ومعه الآنسة كلارا

قال باليون ذلك وشد على لجام الجواد . تقدم شبحان من العربة . هذا هو برنار ، على الرغم مما هو فيه من ضعف قد جاء للقائها متلهفا يريد ان يعرف نتيجة المحاكمة . انتصبت فى جلستها ، وعلى البعد صاحت :

— لا وجه لاقامة الدعوى .

لم يقل برنار كلمة غير « كان الامر متوقعا »

ثم اخذ يعاون العمة كلارا على الوصول الى اعلى العربة وامسك بيده اللجام بينما نزل باليون ليعود على قدميه الى البيت .

توسطت العمة كلارا مجلس الزوجين وكان لابد ان يصرخ كل منهما فى احدى اذنيها ان الامر قد سوى تماما ، على انها لم تكن تعرف عنه فى الواقع الا الشيء المبهم القليل . وكما هى عادتها اندفعت تتكلم بدون انقطاع قالت :

لقد كان هذا الاسلوب دائما اسلوب الحكام وهذه الطريقة طريقتهم ، انها قضية دريفوس تعود من جديد ، نعم ، اكذب ثم اكذب فسيبقى من كذبك اثر ، نعم لقد كانوا اقوياء حقيقة هؤلاء الدساسون ولكن عيب الجمهوريين انهم لم يأخذوا دائما الحذر ما ان تترك لهؤلاء الوحوش القذرين الفرصة حتى ينقضوا عليك ويعملوا فيك انيابهم ..

هذا الهراء اعفى الزوجين من تبادل الكلام فيما بينهما .

صعدت العمة كلارا السلم لاهثة وفى يدها شمعة مضاءة :

— هلا اويت الى فراشك يا تيريز . انك لابد مجهدة . ستجدين فى غرفتك قدحا من الحساء وبعضا من لحم الدجاج البارد .

ولكن الزوجين ظلا واقفين فى الدهليز . نظرت المراة العجوز الى برنار وهو يفتح باب الصالون ويفسح لتيريز الطريق ثم يغيب خلفها . لو لم تكن صماء لا لتصقت باذنها الى الباب المغلق . ولكن لا داعى الى الحذر مع هذه المراة التى تعيش حية فى صمت القبور . اطفات العجوز الشمعة وهبطت السلم تتحسس خطاها ووضعت عينها على خرق قفل الباب . رات برنار يحرك المصباح من مكانه فبدا وجهه واضحا فى الضوء وقد اكتسى رهبة وجدا . رات تيريز من ظهرها جالسة وقد القت على احد المقاعد بمعطفها وقبعتها وعرضت حذاءها المبتل للنار فتصاعد منه البخار . وفى لحظة من اللحظات ادارت تيريز وجهها نحو زوجها وغمرت المراة العجوز موجة من الفرح فقد راتها تبتسم .

كانت تيريز تبتسم . وفى خلال الفترة الزمنية القصيرة التى اخترقت فيها الى جانب زوجها المسافة البسيطة التى تفصل ما بين الاسطبل والمنزل اكتشفت تيريز فجاة ، بل ظنت انها اكتشفت الشيء الوحيد الذى يجب عليها ان تعمله . ان مجرد القرب من هذا الرجل قد بدد فيها كل آمالها فى شرح تعرفها وفى الافصاح عن قرارة نفسها ، وما اقدرنا على تشويه الاشخاص الذين نحن اعرف الناس بهم حينما يكونون بعيدين عنا ! طوال رحلتها فى القطار اجهدت عقلها بغير شعور منها تحاول ان تخلق فى برنار الرجل القادر على فهمها ، او على محاولة فهمها . ولكن ما ان القت عليه نظرتها الاولى حتى بدا لها كما هو على حقيقته : انسانا لم يضع نفسه قط ولو لمرة واحدة فى حياته مكان غيره من بنى البشر ، انسانا يجهل ذلك الجهد اللازم للتجرد من ذاتيته ورؤية مايراه الآخرون . هل سيصغى اليها برنار ؟ مجرد الاصغاء ؟ كان يروح ويجيء وسط الغرفة المنخفضة الرطبة التى تئن اخشابها المتآكلة تحت وطء اقدامه . لم يكن ينظر الى زوجته وقد امتلأ راسه بالكلمات التى اعدها واستعد لها منذ زمن بعيد . تيريز هى الاخرى كانت على علم بما ستقول . ان ابسط الحلول هى دائما

تلك التى لم نفكر فيها ابدا . كانت على وشك ان تقول :

ــ سأختفى يابرنار . لاتشغل بالك بى . سأختفى حالا اذا شئت . سأغوص فى الليل . ان الغابة لاتخيفنى لا ولا الظلمات .. انها جميعا تعرفنى . كل منا يعرف الآخر . لقد خلقت على صورة هذه المناطق القاحلة التى لا يوجد فيها كائن حى غير الطيور والخنازير البرية الجائلة الشاردة .. انى اقبل ان تلفظونى من بينكم . احرقوا صورى جميعا . ولتجهل ابنتى حتى اسمى لاصبح فى نظر العائلة وكأنى ماوجدت قط .

ها هى ذى تيريز تفتح فمها لتقول :

ــ اتركنى اختفى يا برنار ...

عندما سمع برنار هذا الصوت اقبل مندفعا من آخر الغرفة وقد انتفخت اوداج وجهه وقال متلعثما :

ــ ماذا ؟ اتجسرين على ان تجعلى لك رايا ؟ ان تبدى لك رغبة ؟ كفى . لا تلفظى كلمة واحدة . ليس لك الا أن تسمعى ، ان تتلقى اوامرى . ان تعملى وفقا لما اتخذه من قرارات قاطعة .

لم يعد مترددا فى كلماته . انه يواصل العبارات التى اعدها فى عناية من قبل . اخذ يرسل الالفاظ وهو متكىء على حافة المدفأة . انه يتكلم بصوت رهيب . اخرج ورقة من جيبه ونظر فيها . فارقت تيريز الرهبة وشعرت بحاجة ملحة الى الضحك . ياله من مضحك ! انه مضحك . لاقيمة لما يقوله بتلك اللهجة الذرية الحقيرة التى تضحك سامعها فى كل مكان الا فى سانت كلير . انها سترحل ، فلم كل هذه المآسى ؟ ليس مما يهم ابدا ان يزول هذا الغبى من عداد الاحياء . لاحظت على الورقة المرتعشة اظافره التى لم يعن بنظافتها . لقد خلت اكمامه من الاساور فهو من هؤلاء الريفيين الذين تبدو عليهم الذراية اذا خرجوا بعيدا عن جحورهم ؟ والذين حياتهم لاتهم رأيا ولا احدا ولا فكرا . ان العادة وحدها هى التى تجعلنا نعلق اهمية على حياة الانسان . لقد كان روبسبيير على حق كما كان نابليون ... ولينين أيضا . رآها وهى تبتسم فاشتد غضبه ورفع عقيرته بالكلام فكان فرضا عليها ان تستمع اليه وهو يقول :

ــ انا قابض عليك بين يدى .. مالك ناصيتك .. هل تفهمين ؟ ستطيعين القرارات التى تصدرها العائلة والا ...

ــ والا ... ماذا ؟ ..

لم تعد تفكر فى التظاهر بعدم الاكتراث وانما اتخذت لنفسها لهجة التحدى والسخرية . اخذت تصرخ وتقول :

ــ لقد سبق السيف العزل . انك شهدت فى صالحى ولم يعد فى وسعك ان ترجع فى شهادتك والا حكم عليك بشهادة الزور .

ــ من الممكن ان تكتشف واقعة جديدة . انى امتلكها فى مكتبى ، هذه الواقعة التى لم يكشف عنها بعد . ليس فى الدعوى سقوط ولله الحمد .

ارتعدت فرائصها عند هذا القول فسألته :

ــ ماذا تريد منى ؟

عاد الى مذكرته يفحصها ، ومضت بعض ثوان ظلت تيريز اثناءها تنصت الى الصمت الرهيب المخيم على ارجلوز . ان الساعة التى تصيح فيها الديكة مازالت بعيدة لم تحن بعد ، وما من ماء جار ينساب فى تلك الصحراء وما من نسمة هواء تحرك قمم الاشجار التى لاعدد لها .

ــ اننى لا اصدر عن اعتبارات شخصية . انا انزوى فلا قيمة لى وانما العائلة وحدها هى التى لها حساب يحسب . ان مصالح العائلة هى وحدها التى تملى على قراراتى . لقد قبلت ، من اجل شرف العائلة ، ان اخدع عدالة بلادى . سوف يحاكمنى الله عن ذلك ...

هذه العبارات الرنانة كانت تؤذى مسامع تيريز . كانت تود لو استطاعت ان تضرع اليه ليتكلم فى بساطة .

ــ من المهم للعائلة ان يعتقد الناس اننا مازلنا مرتبطين ، والا ابدو فى نظر الناس وكأنى غير مؤمن ببراءتك . ومن جهة اخرى اريد ان احافظ على نفسى بقدر ما استطيع ..

ــ هل انا اخيفك يا برنار ؟ .

رد عليها بصوت خافت :

ــ أما عن الخوف ، فلا ، ولكنه البغض والكره .

ثم اضاف الى ذلك .
– لنعمل سريعا ولننقل كل مايلزمنا قوله مرة واحدة .
سنغادر غدا هذا البيت لنقيم الى جواره فى بيت ديكويرو . لا اريد عمتك فى منزلنا . وجبات طعامك ستقدمها اليك باليونت فى غرفتك . اما باقى حجرات البيت فسيحرم عليك دخولها ، على انى لا أحظر عليك التجول فى الغابة . فى ايام الآحاد سنذهب معا الى القداس الكبير فى كنيسة سانت كلير . يجب ان يراك الناس فى ذراعى . وفى الخميس الاول من كل شهر سنذهب معا بالعربة الى سوق .ب. عند أبيك كما كنا نفعل دائما من قبل .

– ومارى ؟

– سترحل مارى غدا . مع خادمتها الى سانت كلير ؛ وبعد ذلك ستبعث بها امى الى الجنوب . سنجد لذلك سببا ننسبه الى الاعتبارات الصحية . هل كنت تأملين حقا اننا سوف نتركها لك ؟ يجب ان نضعها فى حماية هى الاخرى . بعد وفاتى وعندما تبلغ الحادية والعشرين من عمرها ستصبح هى صاحبة الملكية . وبعد الزوج قد يأتى دور البنت .. ولم لا ؟

وقفت تيريز وحبست صرخة فى صدرها :

– اذن انت تعتقد انى من اجل اشجار الصنوبر ...

ياله من غبى ! من بين آلاف الاسباب الخفية التى دعتها الى ما قدمت عليه من اسباب لم يكتشف واحد منها . وها هو ذا يخترع سببا آخر احطها وادناها جميعا .

– طبعا من اجل اشجار الصنوبر ..! وهل هناك سبب آخر؟ يكفى ان تستعرضى الاسباب جميعها واتحداك ان تجدى سببا غير هذا .. وعلى كل حال فالأمر غير ذى بال ولم يعد يعننى شىء من ذلك كله . لم اعد اسال نفسى اى سؤال ، فلم يبق منك شىء يذكر . كل مابقى هو الاسم الذى تحملينه ، وا اسفاه !.. بعد بضعة اشهر عندما يصبح الناس جميعا مقتنعين بقيام الوفاق بيننا ، وبعد أن تتزوج آن من ديجلهيم .. انت تعلمين ان آل ديجلهيم يطلبون مهلة وانهم يريدون التفكير فى الامر .. عندئذ سوف استطيع العودة

الى الاقامة فى سانت كلير . اما انت فستبقين هنا .. ستصابين بداء الاعصاب او باى داء آخر ..

– الجنون ... مثلا ... ؟

– لا ... ان هذا يلحق ضررا بمارى ... ولكن الاسباب المقبولة لن تنقصنا ... هذا هو الأمر ..

قالت تيريز متململة :

– فى ارجلوز .. حتى الموت ..

ثم اقتربت من النافذة ففتحتها . فى تلك اللحظة شعر برنار بلذة حقيقية . هذه المرأة التى طالما سادته وأذلته ، ها هو ذا فى هذه الليلة قد قهرها . واى قهر ؟ انه يشعر بالكبرياء ينبعث من اعتداله . لطالما قالت له مدام دى لاتراف انه قديس ، ولطالما اشادت العائلة كلها بنبل طباعه ، انه اليوم يشعر للمرة الاولى بهذا النبل ويلمسه . حينما بلغه ، وسط الاف الاحتياطات ، وهو فى المصحة ، نبأ الجريمة التى اقترفتها تيريز لم تكلفه كثيرا من الجهد تلك الشجاعة التى اظهرها واجتذبت له المديح والاطراء من الجميع . ليس هناك شىء يتمثل فيه الخطر الحقيقى بالنسبة لأولئك الذين لا قدرة لهم على الحب .

ولما كان برنار مجردا من الحب فهو لم يشعر الا بتلك الفرحة المرتجفة التى يشعر بها المرء بعد الافلات من الخطر الداهم المميت ، فرحة الرجل الذى يعلم انه قد عاش سنوات طويلة من غير ان يدرى فى صحبته مجنون عنيف – ولكن برنار فى هذه الليلة كان مدركا لشعوره بقوته . لقد تغلب على الحياة . وتحقق له فى اعجاب انه ما من عقبة تقف فى سبيل العقل المستقيم الذى يفكر تفكيرا سليما . حتى بعد تلك المأساة كان على استعداد لان يؤيد القول القائل بان المرء لايشقى ابدا الا بخطئه ان اقسى المآسى وابعدها اثرا ، ها هو ذا قد سواها كما يسوى اية مشكلة اخرى . لن يعرف احد شيئا تقريبا مما حدث وسينقذ المظاهر البادية امام الناس فلن يلومه بعد اليوم احد ولن يرثى لحاله احد . هل يمكن ان يعير الرجل بزواجه من امراة معتوهة قاسية عندما تكون الكلمة الاخيرة فى يد الزوج المنكوب . ان فى حياة العزوبة جانب مفيد

لخصوصا وقد زاد عنده باقتراب الموت حبه الكبير للتملك وللصيد ولركوب السيارة ولكل مايؤكل وما يشرب — وللحياة بوجه عام ».

ظلت تيريز واقفة امام النافذة — كانت ترى جانبا من حصباء الطريق البيضاء وتشم رائحة ازهار الكريزانتيم التى يحميها سياج من غائلة القطعان ، وعلى البعد كانت تقوم اشجار البلوط السوداء تنشر ستارها على الصنوبر فتخفيه كأنه جيش من الاعداء لايرى ولكنه قريب . كانت تيريز تعرف ان هذه الاشجار تحيط بالبيت من كل جانب حراسا اشداء . كانت تعلم ان هؤلاء الحراس الذين تسمع على البعد شكواهم المكبوتة سيرونها وهى تذبل طوال فصول الشتاء القارصة ثم يرونها وهى تحترق طوال فصول الصيف الملتهبة . سيصبحون ويمسون شهداء على اختناقها القاسى البطىء .

اغلقت النافذة واقتربت من برنار :

— هل تعتقد انك قادر على استبقائى قسرا عنى ؟

— انت وما تشائين .. ولكن اعلمى جيدا .. لن تخرجى من هنا الا وانت مقيدة اليدين .

— يا للمبالغة ! .. اننى ادرى بك .. لاتتظاهر بالقسوة فهى ليست من طبعك . لن تعرض العائلة لمثل هذا العار . انى مطمئنة تماما .

عندئذ اكتسى برنار ثوب الرجل العاقل الرزين وقال لها شارحا ان فرارها هو بمثابة اعتراف منها بالجرم . وفى هذه الحالة لن تنجو العائلة من العار الا ببتر العضو المصاب منها ، بالقائه بعيدا ، وبانكاره علنا امام الناس والتبرؤ منه . ثم قال :

— بل ان هذا الحل هو الذى ارادت امى فى اول الامر ان تستمسك به . تصورى ، لقد اوشك بنا الامر ان نترك العدالة تاخذ مجراها .. ولولا ما يتعلق بآن وبمارى .. ولكن مازال فى الامر متسع .. لا تتعجلى الرد .. انك اتركك الى غد ..

قالت تيريز بصوت مكبوت :

— سيبقى لى ابى .

— ابوك ؟ نعم ، نحن موافقون تماما على هذا . ولكن لابيك مستقبله السياسي وله حزبه وله الآراء التى يمثلها انه لايفكر الا فى خنق الفضيحة ايا كان الثمن . اعترفى له على الاقل بما فعله من اجلك . اذا كان التحقيق قد طوى على عجل فانما يرجع الفضل فيه اليه .. على انه لابد قد اعرب لك عن رغبته الصريحة .. اليس كذلك ؟

كف برنار عن رفع صوته وكاد ان يعود الى مزاجه الهادىء الوديع . لم يكن ذلك لشعوره بشىء من الشفقة مهما كان ضئيلا . ولكن تلك المرأة التى لم يكن يسمع لها انفاسا فى تلك اللحظة كانت قد هجعت والقت سلاحها اخيرا . لقد عرفت مكانها الحقيقى وعاد كل شىء الى نظامه الرتيب . ان اى رجل آخر غير برنار ماكان ليظل ساكنا امام كل هذا النجاح والتوفيق . لقد كان فخورا بما حققه من تقويم هذا الاعوجاج : كل منا قد يخطىء ولقد اخطأ الجميع فيما يتعلق بتيريز . حتى مدام دى لاتراف نفسها وهى الخبيرة بالتعرف على طباع كل الذين يعيشون معها . ذلك ان الناس الآن لم يعودوا يستمسكون كثيرا بالمبادىء . انهم لايشعرون بالخطر الكامن فى نوع التنشئة التى نشئت عليها تيريز . انها وحش ضار ، هذا لاشك فيه . ولكن ، ايا كان الحال ، لو انها كانت مؤمنة بالله .. ان الخوف هو اول مراحل الحكمة . هذا هو ماكان يدور بخلد برنار وبتفكيره . كان يقول لنفسه ايضا ان القرية كلها التى كانت تتحرق شوقا للشماتة بهم والتلذذ بما اصابهم من عار سوف تشعر بخيبة الأمل فى كل يوم من ايام الاحاد عند رؤية الاسرة على ماهى عليه من مظهر الوفاق والترابط . انه فى قرارة نفسه ود لو ان يوم الاحد اقبل سريعا ليرى ماتكون عليه وجوه القوم . ولن تفقد العدالة فى ذلك شيئا .

امسك المصباح بيده ورفعه فأضاء بنوره ظهر تيريز :

— الا تصعدين بعد ؟

لم يبد عليها انها سمعت كلماته . فخرج هو من الغرفة وتركها فى الظلام . عثر على العمة كلارا مكومة على اولى درجات السلم . عندما نظرت اليه العجوز ابتسم لها فى تكلف واخذ بذراعها يساعدها

على النهوض . ولكنها قاومت كما يقاوم الكلب العجوز عندما يراد ابعاده عن فراش سيده المحتضر – وضع برنار المصباح على الارض واقترب بفمه من اذن العمة كلارا يصرخ فيها ، ان تيريز تشعر الآن بالراحة ولكنها تريد أن تبقى بمفردها لحظة قبل ان تذهب لتنام. قال لهـا :

– تعلمين ان هذه احدى نزواتها .

نعم ، ان العمة كلارا تعرف ذلك ، ان حظها السيىء يريد دائما الا تدخل على تيريز الا فى الاوقات التى تريد فيها المرأة الشابة ان تبقى بمفردها . وكثيرا ماكانت العجوز تشعر بمجـرد ان تفتح الباب على تيريز ان وجودها قد اصبح غير مرغوب فيه .

انتصبت العمة كلارا فى عناء وصعدت مستندة الى ذراع برنار الى الغرفة التى تشغلها فوق الصالون . دخل خلفها برنار واهتم باشعال شمعته فوق المنضدة ثم قبلها فى جبهتها وانصرف . لم ترفع العمة عينيها عن برنار ، فما من شىء على وجوه الرجال لم تدركه بسمعها الا وادركته بحسها وفطنتها . تركت لبرنار مايكفى من الوقت لدخول غرفته ، ثم عادت فى سكون تفتح الباب .. انه مازال واقفا فى الردهة متكئا على سياج السلم وقد انشغل بلف سيجارة . اسرعت عائدة وقد تخلخلت ساقاها وتقطعت انفاسها حتى انها لم تقو على خلع ملابسها فارتمت فى فراشها وظلت مستلقية مفتحة العينين .

– ١٠ –

فى الصالون . تيريز جالسة فى الظلام . بصيص من النار ما زال حيا بين رماد المدفاة . الآن وقد فات الاوان اخذت تبرز من ذاكرتها اجزاء من ذلك الاعتراف الذى قضت فى اعداده طوال رحلة السفر . ما الذى يدعوها لان تلوم نفسها على عـدم الاستفادة من هـذا الاعتراف ؟ هذه القصة فى الواقع ، التى بنت تفاصيلهـا بحنكة ومهارة ، لا يربطها بالحقيقة والواقع اى رباط . تلك الاهمية التى حلا لها ان تضفيها الى احاديث الشاب ازيفيدو ! .. يالهـا من حماقة ..! هل فى ذلك مايقام له ادنى وزن ؟ لا ، لا ، لقد استجابت الى دون عميق قانون قاس لايرحم . لقد عجزت عن القضاء على

تلك العائلة ، اذن فليقض عليها هى .. انهم على حق اذ يعتبرونها وحشا ضاريا ، ولكنها هى الاخرى تعتبرهم وحوشا كواسر . انهم سيعملون فى بطء وتؤدة على افنائها من غير ان يظهر من ذلك شىء فى الخارج

– منذ الآن سوف يسير ضدى هذا الجهاز العائلى الجبار ، وما ذلك الا لأنى لم اعرف كيف اوقف حركته ولم استطع الفرار من براثنه فى الوقت المناسب . لا جدوى فى البحث عن علة اخرى غير هذه العلة : لقد كانوا هم على ماهم عليه ، وكنت انا على ما انا عليه ... هذا الجهد الذى ظللت ابذله طوال سنتين او اقل قليلا فى التخفى وستر ملامحى والتظاهر بما يختلف عن حقيقتى ... هناك فى اعتقادى اناس اخرون ، هم على شاكلتى ، يثابرون على بذله الى ان يدركهم الموت . لعلهم وجدوا فى الاعتيـاد عونا لهـم على ذلك . أن العادة مخدر قوى على المتاعب . لقد تبلدوا فناموا قانعين فى احضان الاسرة تلك الام القوية العاتية . اما انا ... اما انا .. فلا ...

نهضت تيريز من جلستها وفتحت النافذة فغمرتهـا برودة الفجر . لماذا لاتهرب من هذا السجن ؟ ماعليها الا ان تقفز من تلك النافذة . هل سوف يلحقون بها ؟ ويضعونها مرة ثانية امام القضاء ؟ انها فرصة متاحة لها على مافيها من مجازفة . كل احتمال قد يهون الا هذا الاحتضار الذى لا نهاية له . ها هى ذى تيريز تسحب مقعدا وتسنده الى النافذة . ولكنها خالية الوفاض لاتملك مالا . ان الآلاف من اشجار الصنوبر التى تملكها لاتغنيها فتيلا ، فليست عن غير طريق برنار تستطيع الحصول على فلس واحد . هل تندفع هائمة على وجهها وسط اراضى اللاند القاحلة ؟ كما فعل من قبل واجير ذلك القاتل المطارد الذى طالما احست نحوه تيريز بالعطف ايام طفولتها . انها مازالت تذكر الجنود الذين كانوا يطاردونه وقد سقتهم باليونت النبيذ فى مطبخ ارجلوز . كذلك تذكر ان كلب ديكريرو هو الذى كشف عن آثار الرجل البائس الطريد .. لقد عثروا عليه وهو يوشك ان يموت جوعا وسط الاحراش . لقـد رأته تيريز مكبلا بالحديد فوق عربة ملأى بالقش ، ثم قيل لهـا

فيما بعد انه مات على ظهر السفينة قبل ان يصل الى المنفى في كابين السفينة .. المنفى .. اليسوا قادرين على ان يسلموها الى العدالة كما قالوا ؟ هذا الدليل الذى يزعم برنار انه فى يده .. كذب لاشك .. مالم يكن قد عثر فى جيب المعطف القديم على تلك اللفافة المحتوية على السم .

* * *

عزمت تيريز على التأكد من الامر . اندفعت تتحسس مواقع اقدامها على السلم . كلما ارتقت صاعدة ازدادت الرؤية بسبب ضوء الفجر الذى بدا ينير الزجاج العلوى .. هذه هى على ردهة الحاصل الأعلى ، تلك الخزانة التى علقت فى جوفها الملابس القديمة. انها ملابس عتيقة بالية ، ولكنها لاتعطى لاحد من المساكين لانها تنفع فى موسم الصيد . المعطف الباهت فى مكانه بجيبه العميق . كثيرا ماكانت العمة كلارا تدس فى هذا الجيب اشغال الابرة التى كانت تحكمها فى الزمن الماضى عندما كانت هى الاخرى تقبع فى المخابىء المنعزلة تنتظر مرور اسراب الحمام البرى . مدت تيريز يدها الى الجيب واخرجت منه اللفافة المختومة بالشمع :

كلوروفورم : ٣٠ جراما ــ اكونيتين مسحوق رقم ٢٠ ــ ديجيتالين محلول : ٢٠ جراما .

اعادت تيريز قراءة هذه الكلمات وهذه الارقام . هذا هو الموت انها كانت دائما تخاف من الموت . المهم فى الامر الا ينظر الانسان الى الموت مواجهة ، ويكفى ان يعد مايلزم لذلك من اعمال : ان يصب الماء وان يذيب فيه المسحوق وان يشرب ذلك دفعة واحدة وان يستلقى على الفراش وان يغلق عينيه . هذا كل مافى الامر ، ولا داعى للبحث عما وراء ذلك . لماذا الخوف من هذا الرقاد ؟ اليس شانه كشان اى رقاد آخر ؟ انها ترتجف ولكن ذلك من برودة الصباح المبكر . هبطت تيريز السلم وتوقفت امام الحجرة التى تنام فيها مارى . شخير الخادمة ينبعث منها كخوار الدواب . دفعت تيريز الباب فرات الضوء الباهت يتسلل من خلال النافذة . السرير الحديدى الصغير يشع بياضا وسط العتمة . قبضتان دقيقتان موضوعتان على الغطاء وراس صغير يغوص فى الوسادة اللينة .

عرفت تيريز تلك الاذن الكبيرة : انها اذنها هى . ان الناس لعلى حق : هذه صورة منها هامده نائمة .

ــ انى ذاهبة .. ولكن هذه القطعة منى ستبقى ومعها ذلك القدر كله الذى سوف ينفذ حتى آخره من غير ان تفلت منه نبرة واحدة .

هل هى الطباع ام الميول ام هل هى قوانين الدم التى لاتحيد ولا تتحول ؟ لقد قرات تيريز ان هناك من البؤساء الذين قتلهم اليأس من حمل اطفالهم الى الموت معهم ، وكان العقلاء من الناس يلقون بالجريدة جانبا وهم يتساءلون :

ــ كيف يمكن لمثل هذه الاشياء ان تحدث ؟ ..

اما تيريز فهى وحش ضار ، ولذلك شعرت فى قرارة نفسها أن هذا شيء جائز الوقوع وانه يكفى لحدوثه ان ... ركعت تيريز الى جوار الفراش الصغير وبشفتيها مست اليد الرقيقة المطروحة ادهشها شيء حار نبع من أعماق كيانها البعيدة وطفر الى عينيها وسال حارا كالجمر على خديها : بضع عبرات بائسة ! .. هى التى لم تبك ابدا .. !

نهضت تيريز والقت نظرة أخرى على الطفلة النائمة ثم ذهبت الى حجرتها . ملأت كوبا بالماء وازالت الشمع عن اللفافة ثم ترددت بين العلب الثلاث المحتوية على السم .

كانت النافذة مفتوحة . صياح الديكة كانه يمزق الضباب الذى احتجزت منه اشجار الصنوبر بين فروعها كتلا شفافة لامعة. الحقول يغمرها الفجر فتبدو مخضلة يانعة . كيف يمكن ترك هذا النور كله ؟ ماهو الموت ؟ لا احد يدرى ماهو الموت . تيريز ليست على ثقة تامة من الفناء . انها لاتدرى عن يقين هل فى عالم الفناء اناس يعيشون ؟ تيريز تكره لنفسها الشعور بهذه الرهبة ، وهى التى لم تتردد من قبل فى القذف بالآخرين الى جوف الفناء ، ها هى ذى الآن ترفضه وتثور عليه . كم يخجلها هذا الجبن من نفسها اذا كان موجودا هذا الكائن الأعلى ! .

تذكرت تيريز فى لحظة سريعة يوم عيد الغفران ، وذلك الرجل الوحيد الغارق فى المسوح الذهبية ، وذلك الشيء الذى يحمله بين يديه وشفتيه المتحركتين بالصلوات ومظهر الألم والحزن البادى

عليه .. مادام هذا الكائن الا على موجودا فليزح تلك اليد الآثمة قبل ان ينفذ السهم ويقضى الامر ... واذا كانت مشيئته ان تجتاز المعبر تلك النفس البائسة العمياء فليرض على الاقل ان يقبل فى حبه ورحمته ذلك الوحش الآدمى الذى هو خالقه . صبت تيريز فى الماء شيئا من الكلوروفورم ، فهى مادة ليس اسمها غريب عليها ، ولذا كانت اقل ارهابا لها فهى توحى بصورة من صور النوم . عليها ان تتعجل ، فقد اخذ اهل المنزل يستيقظون ! هاهى ذى الخادمة باليونت قد فتحت عوارض النافذة فى غرفة العمة كلارا . ماذا دهاها حتى تصرخ على هذا النحو للمراة العماء ؟ اليست ، بما توفر لها من عادة ، تستطيع ان تتفاهم معها على خير وجه عن طريق تحريك الشفاه وحدها ؟ اصوات ابواب تغلق وتفتح وخطوات سريعة متلاحقة هنا وهناك . اسرعت تيريز بالقاء رداء على المنضدة تخفى تحته علب السموم . دخلت باليونت عليها مولولة :

ماتت آنستى ! ... لقد وجدتها بلا حراك على فراشها ... بملابسها كاملة .. لقد انتشرت البرودة فى جسمها ..

* * *

على الرغم من كل شىء وضعوا مسبحة بين اصابع الزنديقة العجوز ووضعوا صليبا على صدرها . المزارعون يدخلون ويركعون ثم ينصرفون بعد ان يلقوا نظرة طويلة على وجه تيريز الواقفة الى جانب الفراش الذى به جثة العجوز . لعلهم يقولون :

– من يدرى ؟ ربما كانت هى التى فعلت هذه الفعلة ايضا .. !

ذهب برنار الى سانت كلير لابلاغ النبأ الى العائلة ولعمل الترتيبات اللازمة . ربما قال فى نفسه : لقد جاء هذا الحادث فى موعده لتحويل الانتباه عن الموضوع الاخر الخطير .. ! نظرت تيريز الى هذه الجثة .. هذه الجثة العتيقة المخلصة التى ركعت تحت قدميها فى الوقت الذى كانت على وشك ان تلقى بنفسها بين احضان الموت . هل هى الصدفة العمياء ؟ ام هل هو التوارد العجيب فى الخواطر ؟ لو ان انسانا حدثها فى تلك اللحظة عن وجود ارادة ذاتية ، لهزت كتفيها استنكارا . يقول الناس بعضهم لبعض :

– هل رايتموها ؟ انها لا تتظاهر .. حتى مجرد التظاهر .. بالبكاء ..

كانت تيريز فى ذلك الوقت تحادث من قلبها تلك التى لم يعد لها وجود :

– كيف يمكن الحياة لجثة هامدة بين يدى اولئك الذين يكرهونها .. ! كيف يمكن الا تحاول التطلع الى ماوراء ذلك .. !

فى الجنازة احتلت تيريز مكانها وقامت بدورها . وفى يوم الاحد التالى دخلت الى الكنيسة مع برنار الذى بدلا من ان يتسلل من جوانب الساحة كما هى عادته اخترق دهليزها الاوسط فى تعمد وتظاهر . لم ترفع تيريز عن وجهها قناعها الاسود الرقيق الا بعد ان جلست على مقعدها بين حماتها وزوجها . عمود منتصب يحجبها عن نظرات الحاضرين وليس امامها شىء غير هيكل الكنيسة ها هى ذى محاصرة من كل جانب ، الجمهور من خلفها وبرنار الى يمينها ومدام دى لاتراف الى يسارها وليس امامها الا هذا الطريق الوحيد .. الطريق السالك المفتوح .. كالحلبة امام الثور الهائج المندفع من وسط الظلام .. هذا الفضاء الفارغ حيث يقف رجل مسربل بالسواد بين طفلين وقد ازاح ذراعيه قليلا واخذ يتمتم بكلام غير مسموع .

– ١١ –

فى المساء عاد برنار وتيريز الى ارجلوز فى بيت ديكويرو الذى ظل منذ سنوات فى حكم المهجور . المدافىء يتجمع فيها الدخان والنوافذ لا تغلق باحكام والرياح تمر مصفرة من تحت الابواب التى قرضتها الفئران . ولكن الخريف كان فى تلك السنة رحيما فلم تشك تيريز كثيرا من هذه المضايقات . عمليات الصيد تحتجز برنار كل يوم حتى المساء . وما ان يعود الى البيت حتى يذهب الى المطبخ ويتناول عشاءه مع باليون وزوجته ، بينما تيريز فى غرفتها تستمع الى صوت الملاعق والى اصوات الآكلين الرتيبة . ان الليل يقبل مسرعا فى اكتوبر . الكتب القليلة التى استقدمتها من البيوت المجاورة سبق لها ان قراتها فهى لا قيمة لها . برنار لم يستجب لطلبها بالحصول على بعض كتب من بوردو . لم يسمح لها الا بتجديد مئونتها من السجائر فقط . كانت توقد النار فى المدفاة ولكن الدخان المحمل بعصارات الخشب والمرتد من المدفاة يحرق عينيها ويلهب

حلقها المصاب من الطباق . ما ان تذهب باليونت ببقايا الطعام القليل حتى تسارع تيريز الى اطفاء المصباح والذهاب الى الفراش . كم من الساعات ظلت هكذا ممده قبل ان يأتى النوم لانقاذها ! ... الصمت المخيم على ارجلوز يمنعها من النوم . انها تفضل عليه ليالى الزوابع والرياح . هذه الشكوى اللانهائية المنبعثة من قمم الاشجار تحمل اليها عذوبة صوت الآدميين . استسلمت تيريز لهذه الهدهدة فقد كانت الليالى المضطربة العاصفة تأتيها بالنوم خيرا من الليالى الهادئة الصامتة .

لم تكن تلك الامسيات الطويلة الحزينة لتمنع تيريز من العودة الى المنزل قبل وقت الغروب احيانا . فربما وقع لها ان رأت احدى الامهات وقد امسكت فجأة بيد صغيرها عند مرور تيريز واسرعت به تدفعه دفعا الى داخل بيتها . وربما صادفها احد الرعاة فحيته باسمه الذى تعرفه من قبل ولم يرد لها تحيتها ... ماكان اسعدها لو انها ضاعت وغرقت وسط خضم الناس فى بلدة كثيرة السكان !. لم يعد يوجد فى ارجلوز راع واحد الا وعرف قصتها . انهم ينسبون اليها حتى موت العمة كلارا . لم يكن فى استطاعتها ان تخطو عتبة اى بيت ، وكان عليها ان تخرج من بيتها متسللة من خلال باب خلفى وان تسير بعيدا عن بيوت القرية . لولا تلك العربات المكومة على البعد لما استطاعت ان تلقى بنفسها فى الطريق الجانبى حيث كانت تهرول مسرعة وقد امتلأ قلبها وجلا كالفريسة المطاردة وتستلقى فى الاحراش هربا الى ان تمر احدى الدراجات المتسكعة .

ايام الآحاد فى كنيسة سانت كلير لم تكن تيريز تشعر بتلك الرهبة ولكن بشىء من الراحة والانفراج . يبدو ان رأى الناس فى القرية قد بدأ يتحول قليلا الى جانبها . لم تكن تدرى ان اباها وان آل دى لاتراف قد دأبوا على تصويرها فى هيئة الضحية البريئة التى اصابتها ضربة قاتلة .

***

فى الليلة الاخيرة من اكتوبر هبت ريح عاتية قادمة من المحيط فظلت تهز قمم الاشجار فى عنف ولزمن طويل .. استسلمت تيريز الى غفوة تشبه النوم وهى متنبهة الى اصوات الزوبعة الصاخبة ..

فى الصباح الباكر لم تكن تلك الاصوات هى التى ايقظتها . فتحت النافذة ولكن الحجرة ظلت معتمة . المطر الرفيع الكثيف ينهمر ويسيل على قرميد البيوت وعلى أوراق البلوط الغليظة . لم يغادر برنار البيت فى ذلك اليوم . اندفعت تيريز تدخن وتلقى بسيجاراتها . ذهبت الى ردهة السلم فسمعت زوجها يتنقل من غرفة الى غرفة فى الطابق الاسفل . رائحة غليونه وصلت الى داخل غرفتها حيث تغلبت على رائحة سجايرها الخفيفة فعرفت فيها حياتها السابقة هذا هو اليوم الاول من فعل المطر والزوابع والاعاصير . كم قدر لها ان تعيش الى جانب تلك المدفأة التى تموت فيها النار ؟ جوانب الغرفة تساقطت فيها أوراق الطلاء من فعل الرطوبة وعلى حوائطها مازالت ترى آثار الصور القديمة التى رفعها برنار من مكانها ليزين بها الصالون فى سانت كلير كما ترى المسامير الصدئة التى لم تعد تحمل شيئا . على المدفأة فى داخل اطار مثلث الأجزاء من الصدف الرخيص ، تجاور بعض الصور الفوتوغرافية الباهتة كما لو كان الموتى المثلون فيها قد ماتوا هنا للمرة الثانية . هذا هو ابو برنار وجدته . وهذا هو برنار نفسه واضعا على رأسه قلنسوة البحارين عليها ان تعيش فى تلك الغرفة هذا اليوم بطوله وبعده اسابيع وبعد الاسابيع شهورا ..

عندما اقبل المساء لم تعد تيريز تطيق صبرا . فتحت الباب ببطء ثم هبطت السلم ودخلت الى المطبخ . رأت برنار جالسا على مقعد واطىء امام المدفأة واذا به فجأة ينتصب واقفا . توقف باليون عن تنظيف البندقية التى كانت فى يده ، اما زوجته باليونت فتركت شغل الابرة يسقط امامها على الارض . نظر اليها ثلاثتهم نظرة جعلتها تسأل :

هل انا اخيفكم ؟

— ان دخول المطبخ محظور عليك .. الا تعلمين ذلك ؟ ..

لم تنبس ببنت شفه وكرت راجعة نحو الباب . ولكن برنار استدعاها وقال لها :

— مادمت اراك الآن .. اود ان اخبرك ان وجودى هنا لم تعد له داع . لقد استطعنا ان نخلق فى سانت كلير تيارا من العطف

عليك . انهم هناك يصدقون او يتظاهرون بالتصديق انك مصابة بشيء خفيف من مرض الاعصاب ، وانك تفضلين ان تعيشي بمفردك على ان احضر مرات عديدة لرؤيتك . منذ اليوم اعفيك من حضور القداس فى الكنيسة ..

تمتمت قائلة انه ليس مما يضايقها بالمرة ان تذهب الى القداس ولكنه اجابها ان المهم ليس توفير اسباب السرور لها . بذلك تحقق له الغرض الذى يبتغيه فاضاف قائلا :

— وما دام القداس لا يعنى شيئا بالنسبة لك ...

فتحت فمها تحاول الكلام ، ولكنها ظلت صامتة . اكد عليها رغبته فى الا تتسرب منها كلمة او حركة قد تفسد هذا النجاح الذى امكن الوصول اليه بمثل هذه السرعة ، وعلى غير ماكان منتظرا . سالت عن صحة مارى فقال لها انها بخير وانها سترحل فى اليوم التالى مع آن ومدام دى لاتراف الى بوليو . بل انه هو نفسه سيذهب الى تلك البلدة ليقضى فيها بضعة اسابيع ، شهرين على الاكثر . بعد ذلك فتح الباب وافسح الطريق امام تيريز .

فى الصباح الباكر المعتم سمعت باليون يعد العربة كما سمعت صوت برنار لبرهة بعدها ، ووصل الى اذنها صهيل الجواد ثم كبكبة العربة وهى تبتعد . لاشىء بعد ذلك غير المطر المنهمر فوق القرميد وعلى النوافذ الملوثة بالضباب وعلى الحقول الخاوية وعلى مئات الكيلو مترات من اراضى اللاند والمستنقعات وعلى الكثبان الرملية المتحركة وعلى المحيط البعيد .

* * *

ظلت تيريز تشعل السيجارة من السيجارة التى انتهت من تدخينها ، وحوالى الساعة الرابعة ارتدت معطفا من الجلد واندست تحت المطر المتساقط ، ولكنها سرعان ماداخلها الرعب من الليل البهيم فعادت الى حجرتها . كانت النار قد خمدت فى المدفأة ، واذ اخذتها رعدة البرد ذهبت الى فراشها . فى الساعة السابعة صعدت اليها باليونت بشىء من البيض المقلى على شريحة من لحم الخنزير ولكنها رفضت ان تتناول منها شيئا ولطول ما اكلت من هذا الشحم اصبحت تنفر من طعمه ومذاقه . لا شىء غير

الاطعمة المحفوظة ولحم الخنزير الجاف ! .. قالت باليونت ان ليس لديها ماتقدمه لها خيرا من هذا ، وان برنار قد منع عنها الدواجن . شكت باليونت من ان تيريز تضطرها الى الصعود والنزول من غير فائدة ، وهى التى تشكو من مرض فى القلب ومن انتفاخ فى الساقين .. قالت ان هذا العمل كثير عليها ومرهق لها ولولا خاطر السيد برنار لما استمرت فى القيام به .

انتابت تيريز الحمى فى تلك الليلة . ولكن الحمى لم تؤثر على ذهنها الواعى فاخذت تتخيل حياتها فى باريس . رات نفسها فى ذلك المطعم القائم وسط الغابة والذى ذهبت اليه من قبل ولكنها هذه المرة ليست مع برنار ، وانما مع جان ازيفيدو وسرب من الشابات . ها هى ذى تضع علبة سجائرها على المنضدة وتشعل منها واحدة فاخرة وتنطلق تتحدث عن خلجات قلبها واسرارها بينما الموسيقى تعزف الانغام المكتومة الخافتة . انها تبهر بحديثها فريقا من الوجوه المنصتة لها من غير أن تثير فيها الدهشة . ها هى ذى امراة تقول :

— انك مثلى .. لقد احسست بذلك انا ايضا .

وهذا رجل من رجال الأدب ينتحى بها ناحية ويسر فى اذنها :

— يجدر بك ان تكتبى كل ما يدور فى داخلك ونحن على استعداد لنشر هذه المذكرات عن امراة من نساء اليوم فى مجلتنا .

وهذا شاب موله بها يعيدها فى سيارته الى حيث تقيم . ان السيارة تدرج بها صاعدة فى طريق الغابة . لا تشعر باى وجل وانما هى تستمتع بوجود هذا الجسم الشاب المضطرب جالسا الى يسارها . انها تقول له :

— لا ، ليس هذا المساء . انى اتعشى الليلة مع صديقة لى .

فيجيبها :

— ومساء غد فتقول :

— ... ولا مساء غد

فيرد عليها يائسا :

— هكذا .. امسياتك كلها مشغولة ؟ ..

فتقول فى دلال :

— تقريبا .. يعنى .. ابدا ..

تخيلت ان هناك شخصا فى حياتها هو الذى جعل كل شىء آخر فى الدنيا لا معنى له ، شخصا لايعرفه احد ممن يحيطون بها ، انسانا متواضعا مجهولا تعلق به وجودها . ان تيريز لاتعيش الا فى ضوء تلك الشمس التى لاتراها الا عيناها ولا يشعر بحرارتها الا جسدها وحده . هاهى ذى باريس تطن وتصخب كما تفعل الرياح فى أشجار الصنوبر . هذا الجسد الملتصق بجسدها خفيفا لطيفا الى أقصى حد يحول بينها وبين التنفس المنطلق ، انها تود لو ضاعت منها انفاسها ولا تبتعد عنه . ارادت تيريز فى حلمها ان تحتضن هذا الطيف الذى صوره لها الخيال فمدت يدها اليمنى تضغط بها على كتفها اليسرى وانفرزت اظافر يدها اليسرى فى كتفها اليمنى .

قامت من فراشها حافية القدمين وفتحت النافذة . ليس فى الظلام برودة ولكن هل يمكن ان تتصور ان المطر قد يكف عن السقوط فى يوم من الايام ؟ ستمطر الدنيا حتى اليوم الذى ينتهى فيه العالم .. لو كان معها شىء من النقود لفرت الى باريس ولذهبت مباشرة الى جان ازيفيدو واسلمت اليه زمامها . سيجد لها عملا . هل يتاح لها أن تصبح امرأة بمفردها فى باريس تكسب عيشها بنفسها ولا تعتمد على احد .. ؟ هل يتاح لها ان تتجرد من روابط الأسرة وان تعهد الى قلبها وحده بمهمة اختيار ذوى قرباها ، ليس اولئك الذين تربطها بهم رابطة الدم ، وانما الذين تربطها بهم رابطة القلب ورابطة الجسد ايضا ؟. هل يتاح لها أن تتعرف على اقاربها الحقيقيين مهما كانوا قلة ، ومهما كانوا مشتتين .. ؟ غلبها النوم فى نهاية الامر والنافذة مفتوحة . لم تلبث ان ايقظتها برودة الفجر فوجدت اسنانها تصطك وقد هربت منها القدرة على الوقوف واغلاق النافذة بل وعلى مد ذراعها وجذب الغطاء عليها .

* * *

لم تغادر فراشها فى ذلك اليوم ولم تغتسل . اكتفت بتناول بضع لقيمات من الطعام وبشرب شىء من القهوة لكى تستطيع التدخين فقد اصبحت معدتها لاتتحمل الدخان على فراغ . حاولت ان تستعيد التخيلات التى راودتها فى الليل ، على ان ارجلوز قد خلت تماما من كل صوت واصبحت فيها فترة مابعد الظهر لاتقل

ظلاما عن الليل . فى تلك الايام التى تعتبر اقصر ايام السنة تعمل الامطار الكثيفة على توحيد الزمن وعلى ادماج الساعات بعضها ببعض . فى تلك الايام تتابع الشمس طلوعها وغروبها فى صمت وتيب ثقيل . لم تكن لتيريز رغبة فى النوم فكانت احلامها لذلك اكثر دقة ووضوحا . اخذت تبحث فى ماضيها عن الوجوه التى نسيتها وعن الافواه التى احبتها عن بعد وعن الاجساد المبهمة التى وصلت مابينها وبين جسدها ، المقابلات العارضة واحلام اليقظة الليلية . كانت تخترع لنفسها سعادة لا وجود لها وهناء وهميا كانت تخلق لنفسها من لاشىء غراما مستحيلا .

بعد بضعة ايام قالت باليونت لزوجها باليون :

— انها لاتغادر فراشها ابدا وتترك طعامها وخبزها لا تمسه . على انى اقسم لك انها تفرغ زجاجتها الى آخرها . مهما اعطيتها من الشراب ، هذه الشقية ، شربته وطلبت المزيد . وبعد ذلك احرقت اغطية الفراش بسيجارتها . سينتهى بها الامر حتما الى احداث حريق . انها تدخن الى حد أن اصبحت اصابعها واظافرها صفراء كما لو كانت قد غمستها فى الكركم . يا للخسارة .. ! تلك الاغطية التى نسجت باليد خصيصا .. ! لاتنتظرى منى أن ابدلها لك كثيرا ..

قالت الخادم العجوز ايضا انها مستعدة دائما لتنظيف الغرفة وترتيب الفراش فهى مارفضت ذلك قط ، ولكنها تلك الكسولة التى لاتريد الخروج من بين الاغطية . لم تعد باليونت تجد ضرورة لحمل اوعية الماء الساخن فى كل صباح والصعود بها مع مافى ساقيها من انتفاخ واوجاع فقد كانت تجدها كما هى فى المساء عند باب الغرفة حيث تركتها من قبل .

اخذت تيريز تنفصل بمخيلتها عن هذا الجسد المجهول الذى اخترعته من اجل سعادتها . لقد سئمت هذا الهناء وشعرت بالشبع من هذا السرور الوهمى فراحت تؤلف فى ذهنها وسيلة اخرى للانطلاق . هاهم اناس كثيرون راكعون حول فراشها الحقير وها هو ذا طفل من ارجلوز — واحد من أولئك الأطفال الذين كانوا يفرون عند اقترابها منهم — محمولا على الايدى يدخلونه عليها فى غرفتها وهو فى النزع الاخير . ما ان تضع تيريز عليه يدها التى

كساها النيكوتين اصفرارا الا وينهض الطفل سليما معافا . راحت بعد ذلك تؤلف لنفسها خيالات أكثر تواضعا من هذا . ها هى ذى تعد لنفسها بيتا على شاطىء البحر . انها ترى فى حلمها الحديقة والشرفة وتنظم الحجرات وتتخير كل قطعة من قطع الاثاث ، وتبحث عن المكان المناسب لتضع فيه مالديها من اثاث فى سانت كلير . انها تناقش نفسها فى اختيار القماش والالوان . لايلبث هذا الزخرف ان يتلاشى وان يتوه فى الضباب فلا يبقى منه غير عريشة فوق مقعد فى مواجهة البحر . هاهى ذى تيريز جالسة تسند رأسها الى كتف. هاهى ذى تنهض عند سماع الجرس المؤذن بحلول وقت الطعام. انها تسير تحت الخميلة المظلمة . شخص ما يسير الى جوارها وفجاة يحتضنها بين ذراعيه ويجذبها اليه . تخيلت تيريز ان القبلة قادرة على وقف سريان الزمن وان فى الحب لحظات لا نهاية لها . انها تتخيل ذلك ولن تعرفه أبدا . ها هو ذا المنزل الابيض الناصع يبدو ثانية أمام نظرها وهاهى ذى البئر وقد اخذت رافعته تئن وتصرخ . ازهار الهليوتروب الندية تملأ الفراغ بعبيقها . سوف يكون العشاء فترة هجوع وراحة قبل الهناء المنتظر فى المساء والليل ، هذا الهناء الذى لايمكن النظر اليه مواجهة لما فيه من قوة تطغى على مافى القلب من قوى واثقال . هذا هو الحب الذى حرمت منه تيريز اكثر مما حرم منه اى مخلوق آخر . لقد استولى عليها هـذا الحب ونفذ الى قرارة كيانها كله . سمعت تيريز او كادت ، وهى فى غمرة هـذا الشعور اللذيذ ، صراخ بالبونت .ماذا تقول هذه العجوز الشمطاء ؟ ان مسيو برنار سوف يصل من الجنوب فى يوم او فى آخر من غير اخطار سابق .

— فما الذى سوف يقوله عندما يرى تلك الحجرة ؟ انها حقا كحظيرة الخنازير .

جلست تيريز على حافة فراشها ونظرت فى رعب الى ساقيها الهيكليتين . ان قدميها تبدوان فظيعتين . لفتها بالبونت فى رداء كثيف ودفعتها الى أحد المقاعد .. بحثت بالقرب منها عن سجائرها ولكن يدها سقطت اعياء فى الفضاء . شعاع بارد من اشعة الشمس يدخل من فجوة النافذة المفتوحة . بالبونت تتحرك جاهده وفى يدها

مكنسة . انها تلهث وتتمتم بالسباب واللعنات . هذه هى بالبونت. انها مع ذلك طيبة القلب رحيمة . الم يذكر عنها افراد العائلة انها فى كل عيد من اعياد الميلاد تذرف الدمع سخينا عندما يذبح الخنزير الذى قضت الايام فى تسمينه ؟ انها اليوم حانقة اشد الحنق على تيريز لانها لاترد عليها . ان الصمت فى نظرها يعتبر من الاهانات الكبرى ، انه علامة من علامات الاحتكار .
ولكن تيريز لم تكن قادرة على الكلام ولم يكن صمتها بارادتها .

وعندما شعرت حول جسمها بنضارة الملاءات النظيفة ظنت انها قالت كلمة الشكر والامتنان ، ولكن صوتا ما فى الواقع لم يخرج من بين شفتيها . قالت لها بالبونت فى خشونة وهى تنصرف :
— هذه الملاءات .. لن تحرقيها بعد اليوم ..

خشيت تيريز أن تكون الخادمة قد اخذت منها سجائرها فمدت يدها الى المنضدة تتحسسها . لم تكن السجائر فى مكانها . كيف لها ان تحيا من غير ان تدخن ؟ كان لزاما عليها الا تكف اصابعها عن مس هذا الشىء الصغير الجاف الملتهب ، وكان لزاما عليها بعد ذلك ان تشم الى مالا نهاية رائحة هذا الضباب الذى يملأ الغرفة والذى مصه فمها ثم عاد فلفظه . لن تصعد اليها بالبونت الا فى المساء . ليس امامها الا ان تقضى فترة ما بعد الظهر كلها بلا تدخين . اغلقت عينيها ؛ بينما اصابعها المصفرة لم تكف عن حركتها المعتادة حول السيجارة التى لا وجود لها .

فى الساعة السابعة دخلت بالبونت وفى يدها شمعة . ووضعت على المنضدة اوعية اللبن والقهوة وقطعة من الخبز ثم قالت :
— الست بحاجة الى شىء آخر .. ؟
توقفت فى خبث ان تطالبها تيريز بسجائرها . ولكن تيريز لم تحول وجهها عن الحائط الذى التصق به .

لا شك ان بالبونت قد اهملت احكام غلق النافذة ، اذ انفتحت بفعل هبة من هبات الريح فانسابت برودة الليل الى الغرفة وملأتها لم تجد تيريز فى نفسها من القوة مايمكنها من أن تدفع عنها الاغطية وتهب جارية حافية القدمين الى النافذة لتغلقها ، انكمشت بجسمها

وجذبت الغطاء حتى عينيها وظلت ساكنة تتلقى الهواء القارص على جفنيها وعلى جبهتها . كانت الاصوات الهائلة المنبعثة من اشجار الصوبر تملأ ارجلوز كلها ، ولكن على الرغم من هذا الهدير الذى يشبه هدير المحيط كان الصمت هو كما هو ، صمت ارجلوز الرهيب . قالت تيريز لنفسها ، انها لو كانت تحب الالم حقيقة لما اندست الى هذا الحد تحت اغطيتها . حاولت ان تزيح هذه الاغطية عنها قليلا ، ولكنها لم تتحمل التعرض لهذا الصقيع غير ثوان قليلة . بعد ذلك نجحت فى هذه المحاولة لمدة اطول كما لو كانت فى لعبة تمارسها . وهكذا من غير أن تركز على الامر ارادتها الواعية اصبحت آلامها تسليتها وعزاءها الوحيد ومن يدرى ؟ ربما صارت هذه الآلام سبب بقائها فى هذا الوجود .

— ١٢ —

— خطاب من سيدى .

لم تمد تيريز يدها لتناول الخطاب الذى تقدمه لها باليونت فعادت الخادمة تقول فى اصرار ان سيدها يخطرها دائما بقدومه وانها تريد أن تتأكد لتبدأ فى اعداد كل شىء :

— لو سمحت لى سيدتى بان اقرأ ...

قالت تيريز :

— اقرئى ... اقرئى ...

ثم تحولت بوجهها الى الحائط كما كانت تفعل دائما فى حضرة الخادمة . ولكن العبارات التى كانت تلفظها باليونت بصعوبة اخرجتها فجأة من سباتها :

— سرنى ان اعلم من التقارير التى يرسلها لى باليون ان كل شىء يسير على خير وجه فى ارجلوز ..

كان برنار ينبىء بانه سوف يعود بطريق البر ولكنه نظرا لانه قد يتوقف فى مدن عديدة فهو لايحدد بالضبط تاريخ وصوله ..

— .. لن يكون ذلك بعد يوم ٢٠ من ديسمبر بحال . لا تعجبوا اذا ماهبطت عليكم فجأة ومعى آن وابن ديجلهيم . لقد اعلنا خطوبتهما فى يوليو ولكن الامر لم يصبح رسميا بعد . ان ابن ديجلهيم يتمسك بضرورة رؤيتك قبل ذلك ، وهو يؤكد ان ذلك من

باب اللياقة ليس الا . اما انا فاعتقادى هو انه يريد ان يكون لنفسه رأيا حول ما انت به ادرى . لك من الذكاء مايكفى للخروج بكرامتك سليمة من هذا الاختبار العسير . تذكرى انك مريضة وان روحك المعنوية منهارة . انى على كل حال اعتمد عليك فى ذلك ، وسأعرف كيف اقدر ماتبذلينه من جهد لعدم الاضرار بهناء آن ولعدم افساد هذا المشروع الذى يحقق مصلحة العائلة من كافة الوجوه . كذلك لن اتردد عند اللزوم فى معاقبتك عقابا صارما عن كل محاولة تخريبية تصدر منك . على انى على يقين من انه لايوجد مايخشى منه من هذه الناحيـة .

كان اليوم جميلا صافيا باردا . نهضت تيريز مستسلمة لاوامر باليونت واستندت الى ذراعه لتسير بضع خطوات فى الحديقة ، ولكنها لم تستطع الانتهاء من اكل صدر الدجاجة الذى قدمته لها الا بصعوبة كبيرة . عشرة أيام باقية قبل ان يحل يوم ٢٠ من ديسمبر . فكرت باليونت لو أن سيدتها قبلت ان تحرك جسمها قليلا لكان فى ذلك مايكفى لتسترد قوتها عند حلول التاريخ المنتظر . قالت الخادمة لباليون زوجها :

— لا يمكن القول انها تعاند فى ذلك او تصدر عن نية سيئة . انها تحاول الى اقصى ما يمكنها . ان سيدى برنار خبير بوسائل تدريب الكلاب العنيدة وتأديبها . انت تعرف طبعا كيف تتحول هذه الكلاب عندما يضع فى عنقها السلاسل والاغلال . لم يتطلب منه امر زوجته هذه وقتا طويلا ليحولها الى مايشبه الكلبة الهادئة المطيعة . ولكنه يفعل خيرا الا يغتر بهذا المظهر الخداع ..

ذلك ان تيريز شرعت فعلا تبذل جهدها للتخلص من الاحلام ومن الغفوات ومن الفناء . كانت تكلف نفسها مشقة السير والاكل وخصوصا مشقة استعادة ذهنها وتفكيرها والنظر بعينى رأسها الى حقائق الاشياء والاشخاص . انها تعود الى الارض التى اشعلت هى نفسها النيران فيها ، تعود لتطأ باقدامها رمادها ولتسير بين صنوبراتها المحترقة السوداء . سوف تحاول ان تتكلم وان تبتسم فى وسط هذه العائلة .. عائلتها .

* * *

١٨ من ديسمبر حوالى الساعة الثالثة ـ السماء ملبدة بالغيوم من غير ان يتساقط منها مطر . تيريز جالسة امام المدفأة المشتعلة فى غرفتها وقد احنت راسها تسندها الى متكأ المقعد واغمضت عينيها . استيقظت على صوت (كركرة) محرك السيارة : وعرفت صوت برنار فى ردهة المنزل . سمعت ايضا صوت مدام دى لاتراف . وحينما اقبلت باليونت اللاهثة تزيح الباب من غير ان تدق عليه ، كانت تيريز واقفة على قدميها امام المرآة . كانت تضع الطلاء الاحمر على شفتيها وعلى خديها وهى تقول :

ـ يجب على الا ابدو مخيفة فى نظر هذا الشاب ..

اخطأ برنار بعدم مبادرته الى الصعود فورا الى غرفة زوجته . قال ابن ديجليهم لنفسه وكان قد وعد والديه بانه لن يحتفظ بعينيه فى جيبه :

ـ ان اقل مايقال عن ذلك انه عدم اكتراث وفى ذلك مافيه مما يستحق التفكير ..

ابتعد قليلا عن آن ورفع حافة معطفه المصنوعة من الفرو وهو يقول :

ـ لا جدوى من محاولة تدفئة حجرات تلك البيوت الريفية

ثم سأل برنار :

ـ اليس لديكم كهف فى اسفل البيت ؟ اذن ستكون ارضياتكم دائما عرضة للتعفن والتآكل مالم تضعوا تحتها فرشة من الاسمنت .

كانت آن دى لاتراف ترتدى معطفا من الفرو وقبعة من الصوف لا اشرطة فيها ولا حلية . وكانت مدام دى لاتراف تقول عن هذه القبعة انها من غير اى شىء يزينها تتكلف اكثر من قبعاتنا فى العهد الماضى ، مع كل ماكان يعلوها من ريش واعواد ، على ان هذا الصوف فى حد ذاته جميل للغاية ، لقد اشتريناه من لايهاك ، وصممت القبعة على احدث موديلات ريبو . جلست مدام دى لاتراف تعرض حذاءها للنار ، وقد اتجهت بوجهها القاسى الشاحب ناحية الباب . لقد وعدت برنار بان تكون على مستوى الاحداث والظروف . من ذلك انها انذرته قائلة :

ـ لاتطلب منى ان اقبلها فهذا امر لايليق بك ان تكلف به امك .

يكفينى .. يكفينى قسوة ان المس يدها . هل تعلم ؟ يا الاهى ! ما افظع الفعلة التى اقترفتها . على ان ذلك ليس هو كل ماينفرنى منها .. فقد عرف ان هناك اناسا يستطيعون الاقدام على القتل .. ولكنه مكرها وخبثها .. هذا شىء مخيف لايطاق . هل تذكر قولها لى :

ـ يا امى ، خذى هذا المقعد ستكونين فيه اكثر راحة ..

بل هل تذكر عندما كانت لاتخشى ان توجه اليك ضربتها ، ومع ذلك تقول :

ـ .. هذا المسكين العزيز يخشى الموت .. لو اجتمع حوله الاطباء للتشاور لمات لساعته رعبا ..

الله وكيلى ، اننى لم اكن اشك فى شىء فى ذلك الوقت ، ولكن كلمة « هذا المسكين العزيز » بالطريقة التى نطقتها بها قد اثارت لدى دهشة ..

لم يكن يهم مدام دى لاتراف فى تلك اللحظة وهى جالسة فى صالون ارجلوز غير الحرج الذى يشعر به الموجودون جميعا . فاخذت تراقب نظرات ابن ديجليهم الفاحصة المدققة ، كأنها اعين الصقر ، يركزها على برنار . قالت :

ـ يا برنار ، يجب عليك ان تذهب لترى ما الذى تصنعه تيريز .. ربما تكون مريضة او لعلها تشكو من شىء ..

كانت آن ، وقد انصرفت عن كل شىء وكأنها لم تعد تهتم لما قد يحصل ، أول من تعرف على الخطوات المألوفة لها من قبل . فقالت :

ـ انى اسمع خطواتها ، هى هابطة على السلم .

وضع برنار يده على قلبه الذى شعر فيه بالخفقان والدق العنيف . ياله من غبى ! لماذا لم يسبقهو الى الحضور منذ الامس اذن لاستطاع ان يصفى الامر مع تيريز . ما الذى سوف تقوله ؟ ان لها لمن القدرة على افساد كل شىء من غير ان توقع نفسها تحت طائلة اى عتب . واذ كانت خطواتها على السلم بطيئة ، كان الجميع وقوفا متجهين بنظرهم الى الباب الذى فتحته تيريز فى نهاية الامر .

سوف يتذكر برنار بعد ذلك بسنوات عديدة ، انه عند اقتراب هذا الجسم الناحل المحطم وهذا الوجه الصغير الشاحب المطلى بالمساحيق فكر فى اول الامر فى محكمة الجنايات . ولكن تفكيره هذا لم يكن سببه الجريمة التى اقترفتها تيريز ، وانما الخاطر السريع الذى مر بذهنه واعاد الى ذاكرته تلك الصورة الملونة المقتطعة من جريدة البيتى بارزيان والتى تزين مع غيرها من الصور الكثيرة مثيلاتها الحوائط الخشبية لبيت الخلاء المقام فى حديقة ارجلوز . لطالما توقفت عيناه وهو صبى ، بينما كان الذباب يطن والحشرات تئز فى الخارج من حرارة القيظ على تلك الصورة التى يختلط فيها اللون الاحمر باللون الاخضر والتى تمثل « سجينة بواتييه » .

هذه الصورة عادت الى مخيلته فى تلك اللحظة وهو ينظر الى تيريز وقد جف منها الدم وزال منها اللحم . شعر انه كان مجنونا حقا حينما قرر الا يبعد عنه باى ثمن هذه المراة الخطيرة كما يلقى فى الماء بالقنبلة التى يخشى من انفجارها ما بين ثانية واخرى . ان تيريز سواءاسلم هوبذلك ام لم يسلم ستظل تثير ذكرى الفاجعة ، بل وما هواسوأ من الفاجعة ، ستظل تثيرالقيل والقال فى كل مكان ، فهى لابد ان تكون اما مجرمة آثمة واما ضحية مظلومة .. بدت ملامح الدهشة على وجوه الجميع وارتسمت فيها علامات الشفقة والاسى التى لاتظاهر فيها ولا خبث حتى ان ابن ديجلهيم لم يعد يدرى اى حكم يصدره وشاع التردد فى افكاره . قالت تيريز :

— الامر فى غاية البساطة . لقد حال سوء الطقس بينى وبين الخروج من المنزل وبذلك فقدت شهية الطعام . لم يكن يدخل جوفى شىء من الطعام تقريبا . على كل حال الرفع خير من السمنة .. ولكن لنتكلم عنك انت يا آن .. انى سعيدة لك ..

تناولت يدى آن الواقفة امامها بين يديها جالسة واخذت تتفرس فى وجهها . عرفت آن فى ذلك الوجه الذى كساه الشحوب والاعياء تلك العينين اللتين طالما حدقتا فيها من قبل فى اصرار مثير . تذكرت انها كثيرا ماقالت لها وهى ترنو اليها طويلا بهاتين العينين :

— هل لك ان تكفى عن النظر الى هكذا ؟ .

— انى مسرورة لهنائك يا صغيرتى آن .

رسمت على شفتيها ابتسامة قصيرة تحيى بها « سعادة آن » وخطيبها ابن ديجلهيم براسه الاصلع الكبير وشواربه المنتفشة كشوارب رجل الشرطة وكتفية الساقطتين وسترته وساقيه القصيرتين المتلئتين تحت سراويله المخططة بالرمادى والاسود . انه على كل حال رجل كسائر الرجال .. زوج كسائر الازواج . ثم عادت تركز عينيها على آن وقالت :

— اخلعى قبعتك ... آه ... هكذا ... لقد عرفتك الآن يا عزيزتى ..

هنا رات آن عن قرب ذلك الفم الساخر وتلك العينين الجامدتين دائما اللتين لم تجر منهما الدموع ابدا . ولكنها لم تكن تدرى مايجول فى خاطر تيريز . قال ابن ديجلهيم ان الشتاء فى الريف ليس كثير المضايقة بالنسبة الى المراة التى تحب بيتها . فهناك دائما الكثير من الاعمال المنزلية التى تقضى فيها وقتها .

قالت آن :

— هلا سالتنى عن اخبار مارى ؟

— صحيح ... كلمينى عن مارى ...

عادت الشكوك وعاد الحذر الى قلب آن . انها منذ شهور تكرر القول بنفس اللهجة التى تتكلم بها امها :

— انى قد اغتفر لها كل جرم لانها ، مهما كان الامر ، مريضة لاتحكم تصرفاتها . ولكن تغاضيها عن مارى ونسيانها لها ! .. هذا عيب لا اطيقه . ام لاتهتم بشئون طفلها .. ؟ قد يمكن اختلاق كافة المعاذير والحجج ، ولكن امرا كهذا هو فى نظرى الدناءة نفسها .

قرات تيريز مايجول بخاطر الشابة فقالت لنفسها :

— انها تحتقرنى لانى لم ابدا بالكلام معها عن مارى . ولكن كيف لى أن يستريح لها حالى ؟ انها لم تفهم ابدا انى مشغولة بنفسى وان كيانى كله مملوء بى . اما آن فهى لاتتمنى الا ان تنجب اطفالا لتفنى فيهم ولهم ، كما فعلت امها من قبل وكما تفعل جميع نساء العائلة الآن . انا فى حاجة دائما لان التقى بذاتى . انى اجهد جسمى وعقلى فى التعرف على نفسى واللحاق بها . سوف تنسى آن مراهقتها

التى قضتها فى احضانى وستنسى غرام جان ازيفيدو عندما تسمع الصرخة الاولى للوليد الذى سيحملها اياه هـذا القزم من قبل أن يخلع سترته . ان نساء العائلة يسعين الى فقدان حياتهن الفردية كلها . انه لشىء جميل حقا هذا التفانى الكامل فى خدمـة الجنس وصيانته . انى أقدر ، ماقى هـذه التضحية ، ما فى هذا الفناء من جمال ... اما انا ... اما انا ....

حاولت الا تصغى الى مايقولون وان تفكر فى آن . لابد انهـا بدات تتكلم الآن .

— قد يطربنى صوتها بضع ثوان ... ربما ... ولكنها بعد ذلك مباشرة ستثير فى الملل ويفرغ صبرى للعودة الى الوحـدة مع نفسى ...

سالت آن :

— اظنها تتكلم جيدا الآن ، مارى ؟

— انها تعيد كل مايقال لها . كم هى مضحكة فى ذلك ! يكفى أن تسمع صوت احد الديكة او نفير احدى السيارات لترفع اصبعهـا الدقيق وتقول فى لغة الاطفال الحلوة

— هل تسمع الموسيقى ؟

انها ظريفة جدا ! انها رائعة ..

قالت تيريز فى نفسها :

— يجب ان اصغى الى مايقولون . ان راسى فارغ . ماذا يقول ابن ديجلهيم ؟

— بذلت جهدا كبيرا واسترقت السمع :

— فى املاكى الكائنة ببلدة باليزاك لايعمل جامعو عصارة الاشجار فى نشاط كنشاط زملائهم هنا . انهم يحصلون على اربع جمعات بينما فلاحو ارجلوز يحصلون على سبع او ثمان .

— هل يحق لهم وثمن العصارة على ماهو عليه ان يكونوا على هذا التكاسل والتراخى ؟

— هـل تعلم أن من جامعى العصارة فى الوقت الحـاضر من يحصل على مائة فرنك اجرا فى اليوم الواحد ؟ ..

اظن اننا نتعب مدام ديكويرو ..

كانت تيريز تستند براسها الى حافة المقعد . نهض الجميع وقوفا . اعلن برنار انه لايعود الى سانت كلير فقبل ديجلهيم ان يرجع بالسيارة التى سوف يعيدها السائق فى اليوم التـالى الى ارجلوز وبها حقائب برنار . حاولت تيريز ان تنهض فى جهد فمنعتها حماتها من ذلك .

اغلقت عينيها وسمعت برنار يخاطب مدام دى لاتراف فيقول :

— ان باليون هذا وزوجته ..! يالهما .. سأريهمـا من اين تؤكل الكتف .. سيشعران ببطشى وغضبى ..

وترد عليه امه قائلة :

— حذار ! لاتفال كثيرا . يجب الا يذهبا ، فهما يعـرفان من الاسرار الكثير ثم فيما يتعلق بالاملاك .. ليس غير باليون من يعرف الحدود كلها حق المعرفة ..

ردت مدام دى لاتراف على ملاحظة ابداها برنار ولم تسمعها تيريز قالت :

— على كل حال كن حذرا — لاتأمن لها كثيرا — راقب حركاتها وسكناتها . لاتتركها تدخـل بمفردها الى المطبخ ولا الى حجـرة الطعام ... لا ... انها ليست مغمى عليها . انها نائمة او لعلهـا متظاهرة بالنوم

فتحت تيريز عينيها . ها هو برنار واقف امامهـا وقد مد يده بكوب :

— ابلعى هذا . انه نبيذ من اسبانيا له قدرة كبيرة على التنبيه والافاقة .

ولما كان من عادته أن ينفذ كل ماعتزم ان يعمله فقد دخل الى المطبخ وانفجر غاضبا . سمعت تيريز احتجاجات باليونت الصارخة بلغتها الدارجة وقالت فى نفسها :

— لقد خاف برنار من شىء .. هذا ظاهر ممن خاف ؟ .

عاد برنار اليها وقال لها :

— اعتقد ان شهيتك للطعام ستزداد فى حجرة الطعام عنهـا فى غرفتك .. لقد اعطيت التعليمات لكى تعد المائدة كما كان الحال فى الماضى .

وجدت تيريز فى برنار الشخص الذى عرفته فى أيام الدراسة ، ذلك الحليف الذى يريد أن يخرجها من المآزق ايا كان الثمن .» ها هو يريدها ان تشفى مهما كلف ذلك . طبعا لقد انتابه الخوف فى فترة ما . نظرت اليه تيريز وهو جالس امامها يقلب جمرات المدفاة ، ولكنها لا ترى الصورة التى تراها عيناه الكبيرتان مرتسمة وسط اللهب . انها تلك الصورة الملونة بالاحمر والاخضر والمقتطعة من جريدة البيتى بارزيان : صورة سجينة بواتيه .

مهما امطرت السماء فى ارجلوز لا تحتجز ارضها الرملية شيئا من برك الماء . ويكفى فى قلب الشتاء ان تشرق الشمس لمدة ساعة واحدة لكى يستطيع المرء ان يسير بحذائه العادى على الطرقات الطرية الجافة المكسوة بالصقيع من غير ان يخشى البلل . كان برنار يمارس الصيد طوال اليوم مع محافظته على الحضور فى اوقات الطعام وكان يستفهم من تيريز عن صحتها وعن حالها ، ويبذل لها من العناية مالم يبذله لها من قبل .زالت الكلفة أو كادت ، وزال الحرج من علاقتهما . كان يجبرها على أن تزن نفسها مرة كل ثلاثة أيام وعلى الا تدخن الا سيجارتين فقط بعدكل وجبة . اقبلت تيريز بناء على نصيحة برنار على الاكثار من المشى فقد قال لها .

ـ ان الحركة والتمرين هما خير الوسائل لفتح الشهية .

لم تعد تخشى شيئا فى ارجلوز . اصبح يبدو لها أن اشجار الصنوبر تتفرق من حولها وتفتح لها صفوفها وتشير اليها ، ان انطلقى واذهبى الى حيث تشائين . فى احدى الامسيات قال لها برنار :

ـ انى اطلب منك ان تنتظرى الى ان يتم زواج آن اذ يجب ان يرانا اهل القرية جميعا مرة اخرى معا . بعد ذلك ستكونين حرة .

فى الليلة التى تلت هذا الحديث لم تستطع النوم فقد ظلت عيناها مفتوحتين يشد عليهما سرور يخالطه القلق .. سمعت فى الفجر اصوات الديكة التى لاعداد لها والتى يبدو انها لا تتجاوب فى صياحها : انها تصيح معا فتملأ الارض والسماء ضجيجا متواصلا ها هو برنار سيتركها طليقة فى الدنيا كما سبق له من قبل ان اطلق فى البرية انثى الخنزير الوحشى التى لم يستطع ترويضها . بعد

آن تتزوج آن أخيرا سيقول الناس ماشاء لهم القول ما دام برنار سيأخذها من يدها الى وسط باريس ويلقيها فى الخضم ثم يفر هاربا. هذا ما اتفقوا عليه . لاطلاق ولا انفصال رسمى . سيخترعان سببا مناسبا لاسكات الناس وقطع السنتهم ، الصحة مثلا ، فهى لا تشعر بالتحسن فى حالها الا فى السفر . سيدفع لها بانتظام عائد العصارة الناتجة من اشجارها عند حلول عيد القديسين من كل سنة .

لم يكن برنار يناقش تيريز فى شىء من مشروعاته ، افهمها ان فى استطاعتها ان تذهب الى الجحيم اذا شاءت . قال لامه يوما :

— لن اهدأ الا بعد ان ترحل عن هذا المكان ولا بد ان تعود الى استعمال الاسم الذى كان لها قبل الزواج .. هذا لايمنع ، على كل حال ، اذا ماحاولت ان تركب راسها ، من ان نتقابل مرة اخرى ».

ولكنه مع ذلك كان يقول مؤكدا :

— ان تيريز لاتثور الا وهى بين القضبان فاذا ماردت اليها حريتها قد لا تكون هناك من هى اعقل منها ولا أرزن . هذه على كل حال محاولة يجب علينا تجربتها ..

وهذا كان راى مسيو لاروك ايضا . ففى اعتقاده ان من الخير عموما ان تختفى تيريز اذ سيساعد رحيلها على سرعة نسيانها وسيفقد الناس عادة الحديث عنها مع الزمن . من المهم للجميع ان يخيم الصمت على هذا الموضوع كله — لقد تمكنت هذه الفكرة من عقول القوم حتى أصبح من العسير اقتلاعها :

يجب أن تخرج تيريز من عقالها وان يطلق سراحها . ما اشد تحرقهم لتحقيق هذه الفكرة واخراجها الى حيز التنفيذ ! ...

كانت تيريز تعشق هذا التجريد الذى يفرضه الشتاء المنسحب على الأرض التى اكتمل عريها ، على الرغم من الكسوة الجافة من الأوراق الميتة المتشبثة بأشجار البلوط . اكتشفت فى ذلك الوقت أن الصمت فى ارجلوز لا وجود له . ففى أكثر الأوقات هدوءا تسمع الغابة تئن وتشكو كمن يبكى سوء حاله وتراها تتأرجح وتتمايل وتهجع وقد تحول الليل فيها الى وسوسة لا نهاية لها . ستصادف فى حياتها المقبلة ، تلك الحياة التى لا تستطيع أن تتصورها على

حقيقتها بعد ، اياما ترى فيها الفجر خاليا خاويا حتى لينتابها الاسف على ساعة الصباح فى ارجلوز حيث لا ضجيج غير صياح الديكة التى لا عدد لها . ستذكر فى فصول الصيف القادمة طنين زنابير النهار واصوات حشرات الليل . ستعاشر فى باريس لا هذه الصنوبرات الممزقة وانما كائنات رهيبة مخيفة . ستعيش بين جماهير الناس بعد أن عاشت طويلا بين جماهير الأشجار .

***

شعر الزوجان بالدهشه العميقة لما بينهما من حرج يكاد ان لا يذكر . قالت تيريز لنفسها ان الأشخاص يصبحون خفافا لطافا على قلبنا متى تاكد لنا ان فراقهم قريب . كان برنار يعنى بالسؤال عن وزن تيريز ، وكان يعنى أيضا بحديثها ، وكانت هى تنطلق فى الحديث امامه فى حرية لم تعهدها فى نفسها من قبل :

— فى باريس ... حينما اذهب الى باريس ...

انها ستقيم فى احد الفنادق وربما بحثت فيما بعد عن مسكن . انها ستواظب على حضور الدروس والمحاضرات وحفلات الموسيقى « ستعيد تعلمها من الأساس ... » ولم يكن برنار يفكر فى فرض اية رقابة عليها . كان يكتفى بالاستماع اليها غير عابىء بما تقول مستمرا فى تناول طعامه وافراغ كأسه . كان الدكتور بيديمى الذى يتقابل معهما احيانا على طريق ارجلوز يقول لزوجته :

— ما يحيرنى من امرهما انهما لا يبدوان كمن يمثل تمثيلية متقنة .

— ١٣ —

فى صبيحة يوم حار من ايام شهر مارس والساعة العاشرة ، سيل من الآدميين منساب فى الطريق يرتطم بشرفة قهوة السلام ، حيث يجلس برنار وتيريز ، القت بما بقى من سيجارتها ، وكما هى عادة اهل اللاند داست عليها بقدمها تطفئها .

— هل تخشين ان تنتشرى النار فى الصيف ؟

قال برنار ذلك متكلفا ليوجد سببا للضحك . انه يلوم نفسه على انه صاحب تيريز حتى باريس . لا شك انه قام بهذه المهمة فى اليوم التالى لزواج آن مباشرة بسبب كلام الراى العام ، ولكن

السبب المهم هو الاستجابة الى طلب زوجته الشابة . لقد طالما قال عنها أن لها قدرة عجيبة على خلق المواقف الشاقة ، ورأى انها طالما ظلت قائمة فى حياته فسيضطر كما يفعل الآن الى قبول القيام بمثل هذا العمل الذى لا روية فيه . ما زالت هذه المراة المجنونة تحتفظ بنفوذ ظاهرى على مثل عقله المتوازن المتين . وفى لحظة الانفصال عنها، لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بشىء من الحزن لم يكن ليرضاه لنفسه أبدا . هذا الشعور ، انه غريب عنه اذا ما حاول ان يحدثه فيه اى انسان ، وهو جانب تيريز اكثر غرابة بل أمر لا يمكن تصوره . ما أشد حاجته وما أقوى لهفته للتخلص من هذا الشعور . لن تعود اليه انفاسه طليقة الا فى قطار الظهر ، وستنتظره السيارة هذا المساء فى لانجون . غادر المحطة مسرعا ، وانطلق على طريق فيلاندرو ، وبدات جيوش الصنوبر المتراصة . كان يتابع النظرات الى وجه تيريز وبوجه عينيه احيانا الى شخص ما وسط الجماهير الغفيرة ، ويظل ينظر اليه الى أن يختفى وفجاة قال لتيريز :

— يا تيريز ... لقد كنت أريد ان سالك ...

ثم اشاح بوجهه ، فما استطاع ابدا تحمل نظرات هذه المراة . وأخيرا قال على عجل :

— اريد ان اسالك ...

— أريد ان اعرف ... هل كنت تكرهيننى ؟.. لانى كنت فظيعا فى نظرك ..؟

سمع هو نفسه هذه الكلمات التى تلفظ بها فى شىء من الدهشة ومن الغيظ . ابتسمت تيريز ونظرت اليه نظرة عميقة قاسية : ها هو برنار يوجه لها سؤالا ، ذلك السؤال نفسه كان يتبادر فى ذهنها لأول وهلة لو انها كانت فى مكانه . هذا الاعتراف الذى أجهدت عقلها فى اعداده بتؤدة فى العربة أولا وهى تدرج بها على طريق نيزان ثم فى قطار سانت كلير الصغير ، تلك الليلة الطويلة التى قضتها فى البحث والاستقصاء ، عن الوصول الى سبب فعلتها ، هذا الانطواء المضنى على نفسه كل ذلك سينال جزاءه فى هذه اللحظة الحاسمة . لقد ادخلت الاضطراب من غير ان تدرى الى قلب برنار . لقد اورثته

التعقيد ، وها هو فى تلك الساعة يلقى عليها سؤاله كما لو كان انسانا لا يرى الامور على وضوحها ، انسانا يتردد ..! أما تيريز فلم تكن بمثل هذه البساطة ، ولم تكن بمثل هذا التسامح الكريم .. القت على هذا الرجل الجديد عليها نظرة مجاملة ، نظرة فيها ما يشبه عطف الأم وحنانها ، ثم ردت عليه فى نبرة كلهاسخرية :

ـ الست تعلم انى فعلت ما فعلت من اجل ما تملكه من اشجار الصنوبر . نعم لقد أردت ان اصبح وحدى المالكة لأشجارك .

هز برنار كتفيه وقال :

ـ لست اعتقد ذلك الآن وما اعتقدته قط من قبل . لماذا فعلت ذلك ؟ الا تستطيعين ان تذكرى لى السبب الآن ؟

نظرت الى الفضاء : على هذا الرصيف وعلى حافة هذا النهر الطامى من الطين والاجساد المتزاحمة ، فى اللحظة التى توشك ان تندفع فيها الى هذا النهر وان تتردى فيه وان تغوص راضية فى خضمه ، فى تلك اللحظة برقت امام عينى تيريز بارقة من الضوء ، لمع فجر جديد : تصورت فى مخيلتها العودة الى البيت الملىء بالأسرار والأحزان تقضى فيه حياة كاملة فى التأمل والانصلاح وسط الصمت الرهيب الذى يغطى أرجلوز : المغامرة الروحية الدفينة ، البحث عن سبيل الله ... مر أمامها فى تلك اللحظة رجل مراكشى ممن يبيعون السبح والعقود الزجاجية فظن انها تبتسم له واقترب منهما .. قالت تيريز وهى ما زالت تتظاهر بالسخرية :

ـ كنت على وشك ان اجيبك بانى لا ادرى لماذا فعلت ذلك . اما الآن فلعلى عرفت السبب . تصور ..! ربما كان هذا السبب هو رغبتى فى أن ارى فى عينيك شيئا من القلق ، من التطلع ، من الاضطراب ، كل هذه الأشياء التى اكتشفتها فيك منذ هذه اللحظة فقط .

زمجر برنار فى صوت اعاد الى ذاكرتها رحلة العرس فى اول عهدهما بالزواج وقال :

ـ ستظل السخرية تلازمك حتى النهاية ... كونى جادة ... لماذا فعلت ذلك ؟

كفت تيريز عن السخرية والضحك وقالت :

ـ ان رجلا مثلك يا برنار يعرف دائما جميع الأسباب التى تصدر عنها أفعاله ، أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد ، بغير شك ... على الأقل يبدو لى انى اعرفها ...

ـ اما انا فكم كنت اود الا يبقى شىء خافيا عنك . لو انك علمت مقدار العذاب الذى فرضته على نفسى من اجل أن أرى الامور واضحة ... ولكن الأسباب جميعها التى كان فى استطاعتى ان اقدمها لك ـ هل تفهم ؟ كانت ستبدو لى كاذبة بمجرد ان احاول الافصاح عنها ...

فقد برنار صبره وقال :

ـ على اى حال ، هناك مع ذلك يوم حزمت فيه امرك ... ونفذت فيه فعلتك ؟

ـ نعم ، يوم الحريق الكبير فى مانو .

تقارب راساهما ودار الحديث بينهما همسا . فى هذا المفترق بين شوارع باريس ، تحت هذه الشمس الخفيفة ، وفى هذا النسيم الذى تخالطه البرودة وتفوح فيه رائحة الطباق الوارد من وراء البحار والذى يداعب الستر الصفراء والحمراء ، وجدت تيريز ، انه لأمر عجيب أن تستعيد ذكرى ذلك اليوم الحار الشديد القيظ وتلك السماء المختنقة بالدخان وذلك الافق الملتهب وتلك الرائحة النفاذة المنبعثة كرائحة المشاعل والتى كانت ترسلها أشجار الصنوبر المحترقة ، والى جانب ذلك كله قلبها الهاجع الذى تتشكل فى داخله ببطء الجريمة النكراء .

ـ أما كيف حدث ذلك فاليك الشرح .. كنا فى حجرة الطعام وهى معتمة كالمعتاد فى ساعة الظهر ، وكنت انت تتكلم ملتفتا براسك ناحية باليون وقد سهوت عن عدد القطرات التى كانت تتساقط فى أكوبك .

لم تكن تيريز تنظر الى برنار وهى تروى له ما تروى ، وانما كان همها كله منصرفا الى تذكر جميع الظروف وعدم اهمال شىء منها مهما دق . ولكنها سمعته يضحك فتوجهت بنظرة الى وجهه ! نعم .. انه يضحك ضحكته البلهاء وهو يقول :

ـ لا . ما ظنك بى ؟ من تعتقدين ان أكون ...

التعقيد ، وها هو فى تلك الساعة يلقى عليها سؤاله كما لو كان انسانا لا يرى الأمور على وضوحها ، انسانا يتردد ..! أما تيريز فلم تكن بمثل هذه البساطة ، ولم تكن بمثل هذا التسامح الكريم .. القت على هذا الرجل الجديد عليها نظرة مجاملة ، نظرة فيها ما يشبه عطف الأم وحنانها ، ثم ردت عليه فى نبرة كلها سخرية :

— ألست تعلم انى فعلت ما فعلت من اجل ما تملكه من اشجار الصنوبر . نعم لقد أردت أن أصبح وحدى المالكة لأشجارك .

هز برنار كتفيه وقال :

— لست أعتقد ذلك الآن وما اعتقدته قط من قبل . لماذا فعلت ذلك ؟ الا تستطيعين أن تذكرى لى السبب الآن ؟

نظرت الى الفضاء : على هذا الرصيف وعلى حافة هذا النهر الطامى من الطين والأجساد المتزاحمة ، فى اللحظة التى توشك أن تندفع فيها الى هذا النهر وان تتردى فيه وان تغوص راضية فى خضمه ، فى تلك اللحظة برقت أمام عينى تيريز بارقة من الضوء ، لمع فجر جديد : تصورت فى مخيلتها العودة الى البيت الملىء بالأسرار والأحزان تقضى فيه حياة كاملة فى التامل والانصلاح وسط الصمت الرهيب الذى يغطى ارجلوز : المغامرة الروحية الدفينة ، البحث عن سبيل الله ... مر امامها فى تلك اللحظة رجل مراكشى ممن يبيعون السبح والعقود الزجاجية فظن انها تبتسم له واقترب منهما .. قالت تيريز وهى ما زالت تتظاهر بالسخرية :

— كنت على وشك ان اجيبك بأنى لا ادرى لماذا فعلت ذلك . اما الآن فلعلى عرفت السبب . تصور ..! ربما كان هذا السبب هو رغبتى فى أن أرى فى عينيك شيئا من القلق ، من التطلع ، من الاضطراب ، كل هذه الأشياء التى اكتشفتها فيك منذ هذه اللحظة فقط .

زمجر برنار فى صوت أعاد الى ذاكرتها رحلة العرس فى أول عهدهما بالزواج وقال :

— ستظل السخرية تلازمك حتى النهاية ... كونى جادة ... لماذا فعلت ذلك ؟

كفت تيريز عن السخرية والضحك وقالت :

— ان رجلا مثلك يا برنار يعرف دائما جميع الأسباب التى تصدر عنها أفعاله ، أليس كذلك ؟

— بالتأكيد ، بغير شك ... على الأقل يبدو لى انى اعرفها ...

— أما انا فكم كنت اود الا يبقى شىء خافيا عنك . لو انك علمت مقدار العذاب الذى فرضته على نفسى من أجل أن أرى الأمور واضحة ... ولكن الأسباب جميعها التى كان فى استطاعتى أن أقدمها لك — هل تفهم ؟ كانت ستبدو لى كاذبة بمجرد أن أحاول الافصاح عنها ...

فقد برنار صبره وقال :

— على أى حال ، هناك مع ذلك يوم حزمت فيه امرك ... ونفذت فيه فعلتك ؟

— نعم ، يوم الحريق الكبير فى مانو .

تقارب راساهما ودار الحديث بينهما همسا . فى هذا المفترق بين شوارع باريس ، تحت هذه الشمس الخفيفة ، وفى هذا النسيم الذى تخالطه البرودة وتفوح فيه رائحة الطباق الوارد من وراء البحار والذى يداعب الستر الصفراء والحمراء ، وجدت تيريز ، انه لأمر عجيب ان تستعيد ذكرى ذلك اليوم الحار الشديد القيظ وتلك السماء المختنقة بالدخان وذلك الافق الملتهب وتلك الرائحة النفاذة المنبعثة كرائحة المشاعل والتى كانت ترسلها أشجار الصنوبر المحترقة ، والى جانب ذلك كله قلبها الهاجع الذى تتشكل فى داخله ببطء الجريمة النكراء .

— أما كيف حدث ذلك فاليك الشرح .. كنا فى حجرة الطعام وهى معتمة كالمعتاد فى ساعة الظهر ، وكنت انت تتكلم ملتفتا برأسك ناحية باليون وقد سهوت عن عدد القطرات التى كانت تتساقط فى كوبك .

لم تكن تيريز تنظر الى برنار وهى تروى له ما تروى ، وانما كان همها كله منصرفا الى تذكر جميع الظروف وعدم اهمال شىء منها مهما دق . ولكنها سمعته يضحك فتوجهت بنظرة الى وجهه ! نعم .. انه يضحك ضحكته البلهاء وهو يقول :

— لا . ما ظنك بى ؟ من تعتقدين ان أكون ..

انه لا يصدقها . وهل يمكن فى الواقع أن يصدق كلامها هذا أحد ؟ عاد يزمجر ، فعرفت فيه برنار المتأكد من نفسه والذى لا يسمح لأحد بأن يدخل الغفلة عليه .. لقد استعاد طبعه وثقته بنفسه ، فشعرت تيريز ثانية بالضياع . قال لها باستهزاء :

ـ اذن .. لقد جاءتك الفكرة هكذا ، دفعة واحدة ، بايحاء من الروح القدس ؟

شعر برنار باحتقار شديد لنفسه ، اذ واجه تيريز بهذه الاسئلة . انه بذلك قد اضاع كل الفائدة من السخرية التى صبها على رأس هذه المجنونة . وها هى الآن تعود فترفع رأسها . ما الذى دفع به الى الاستجابة لتلك الرغبة الجامحة فى فهم ما حدث ؟ وهل هناك شىء يمكن فهمه من هؤلاء المخبولين ؟ انها غلطة افلتت منه . انه لم يعمل الفكر جيدا ...

ـ اسمع يا برنار ان ما اذكره لك عن هذا الأمر لا اقصد به الى اقناعك ببراءتى . كلا ... ليس هذا بالمرة .

وفى شهوة عجيبة انطلقت تيريز تكبل نفسها بالاتهام . وكانت هى تحكى عن طريقة ارتكابها فعلتها، على هذا الوجه اللاارادى، تبدو كمن قضت الشهور الطويلة تركز فى فؤادها وتغذى فى قلبها الأفكار الاجرامية الفظيعة . الم تعمد بعد أن قامت بالخطوة الأولى من الجريمة الى أعمال الذهن الصافى فى الاصرار على الاستمرار وتنفيذ ما انتوته حتى النهاية .

ـ لم اكن اشعر بالقسوة الا فى اللحظات التى كانت يدى فيها تتردد . كنت انقم على نفسى بسبب اطالة آلامك . كان يجب ان اذهب حتى النهاية وباقصى سرعه . لقد كنت أستجيب الى واجب مفروض على فظيع . نعم ، ان ما عملته كان شبيه بالواجب المفروض ...

قاطعها برنار قائلا :

ـ ماهذا اللغو والتخريف ؟ حاولى أن تقولى لى باختصار ماذا كنت تريدين ! انى اتحداك ان تقولى ..

ـ ماذا كنت اريد ؟ لاشك انه من الايسر لى ان احدثك عما لم اكن اريده .. لم اكن اريد أن أمثل شخصيته غير شخصيتى ؟

ولا أن آتى بالحركات المفتعلة ، ولا أن اتلفظ بالصيغ المحفوظة ، ولا أن انكر فى كل لحظة تيريز هذه التى . لا يا برنار ، تأكد انى لا ابغى الا ان اكون صادقة مصدقة . وانى لأعجب كيف ينبعث من كل ما اقصه عليك الآن هذا الصدى ، صدى الكذب والتلفيق ... !

خفضى صوتك . هذا الرجل الذى امامنا يلتفت نحونا .

لم يعد برنار يتمنى الا ان ينتهى هذا المشهد ويتخلص من هذا الموقف . انه يعرف جيدا هذه المراة المريضة المجنونة . لو انه تركها تسترسل فى هرائها هذا لراحت الى مالا نهاية تحلل وتدقق وتصنع من الحبة قبة . كذلك كانت تيريز ، ان هذا الرجل الذى اقترب منها لحظة قد عاد وابتعد عنها بعدا سحيقا . ولكنها مع ذلك اصرت على الكلام ، وحاولت ان تظهر احلى ماعندها من بسمات ، وأن تستخدم فى صوتها تلك النبرات الخفيفة الفليظة التى طالما احب سماعها برنار .. قالت :

ـ اما الآن ، يابرنار ، فانى احس تماما ان تيريز هذه التى تدفعها الفريزة الى اطفاء سيجارتها خوفا من اشعال الحريق فى الاحراش .. تيريز التى كانت تهوى القيام بنفسها بعد اشجار الصنوبر المملوكة لها وبحساب ثمن عصاراتها ، تيريز التى كانت فى يوم من الايام فخورة بزواجها من احد آل ديكويرو حريصة على الاحتفاظ بمركزها فى قلب عائلة من اكرم عائلات اللاند سعيدة بحصولها فى آخر الامر على الاستقرار والاسرة ... تيريز هذه مازالت حقيقية كالاخرى وما زالت كالاخرى حية ترزق . لا ، لا ، ليس هناك من سبب للتضحية بها من أجل تلك الاخرى ...

ـ اية اخرى ؟ ...

لم تدر تيريز بماذا تجيب . نظر برنار فى ساعته بينما تيريز تقول :

ـ يجب على مع ذلك ان احضر من وقت لآخر الى البلدة ... من اجل مصالحى ... ومن اجل مارى ...

ـ اية مصالح ؟ .. انا الذى ادبر جميع الاموال المشتركة بيننا . لن نفسد ماتم الاتفاق عليه ، اليس كذلك ؟ سيكون لك مكانك فى جميع المناسبات الرسمية ، من أجل شرف الاسرة ومن

اجل مصلحة ماري ، ان تكوني الى جانبي لكي يرانا الناس معا . ان عائلة كبيرة كعائلتنا لاتخلو ، ولله الحمد ، من حفلات الزواج ولا من الجنازات ايضا . بل اني اتوقع شيئا من هذا قريبا ، اذ يدهشني أن يظل العم مارتان على قيد الحياة حتى الخريف القادم . ستكون هذه فرصة لك على مايبدو ..

* * *

جندي المرور على ظهر جواده يقترب بصفارته في شفتيه فتتفتح ابواب خفية وينساب سيل من المشاة متعجلين يخترقون نهر الشارع الاسود قبل ان تطغى عليه موجات السيارات المتلاحقة. قالت تيريز في نفسها :

ـ كان يجدر بي ان ارحل في احدى الليالي الى ناحية براري الجنوب ، كما فعل داجير من قبل . كان يجب على أن انطلق وسط اشجار الصنوبر الهزيلة في تلك الاراضي الخبيثة ، واسير حتى يدركني الاعياء والفناء . فما كنت لأجد في قلبي الشجاعة على الاحتفاظ برأسي غاطسا تحت مياه أحد المستنقعات كما فعل ذلك الراعي في ارجلوز في العام الماضي لان زوجة ابنه لم تكن تعطيه مايمسك رمقه من الطعام . لا ، ولكني كنت استطيع ان القي بجسمي وسط الرمال وأن اغلق عيني ... حقيقة هناك الغربان وهناك جيوش النمل التي لاتتمهل والتي لاترحم ..

نظرت الى ذلك البحر الخضم من الآدميين يتدافع امامها ، تلك الكتلة البشرية الحية التي سوف تنفرج بعد حين لتتلقف جسدها وتدحرجه بين طياتها ثم تمضي به الى المجهول . لم يعد هناك شيء بينهما يمكن ان يفعل او يقال .. اخرج برنار ساعته مرة اخرى وقال :

ـ الحادية عشرة الا ربعا : مجرد الوقت الكافي للمرور على الفندق ...

ـ لن تشعر بالحر الشديد في اثناء سفرك .

ـ بل ربما احتجت لان اتدثر هذا المساء في السيارة .

رات تيريز في مخيلتها الطريق الذي ستدرج فيه سيارته وشعرت بالنسيم البارد الذي سيغطي وجهه ، نسيم محمل

بالروائح المنبعثة من المستنقعات ومن عصارات جذوع الاشجار ومن الحشائش المحترقة ومن نبات النعناع المنتشر ومن الضباب المعلق بالاغصان . نظرت الى برنار وابتسمت له تلك الابتسامة التي طالما قالت عنها سيدات اللاند في الماضي :

ـ لا يستطيع احد ان يقول انها جميلة ولكنها السحر نفسه .

لو أن برنار قال لها في تلك اللحظة :

ـ اني اغفر لك .. تعالي ...

فنهضت لتوها وتبعته راضية . ولكن برنار وقد أحس للحظة بالضيق مما انتابه من تأثر وضعف ، لم يعد يشعر الآن الا ببشاعة المواقف التي لم يتعود مثلها وبسخف الكلمات التي تختلف عن تلك التي درج على تبادلها كل يوم . لقد كان برنار اسير عاداته كما كانت عرباته « على قدر الطريق » الذي تدرج فيه . لقد كان مثل هذه العربات في حاجة الى الحفر والاخاديد التي كونها الزمن . وحينما يعود الى تلك الحفر والاخاديد ، في هذا المساء نفسه ، في حجرة الطعام في سانت كلير ، سيستعيد هدوءه ويتذوق من جديد الراحة والسلام .

ـ اريد للمرة الاخيرة ان اطلب منك الصفح والغفران يا برنار .

ارسلت هذه الكلمات في نبرة جادة وان خلت من الامل . انه جهد اخير تبذله على امل ان تستعيد به الحديث . ولكنه رد عليها محتجا :

ـ لنكف عن الكلام في هذا الموضوع ...

ـ ستحس بنفسك وحيدا . ستشعر بمكاني الى جوارك على الرغم من بعدي عنك . ربما كان من الخير لك لو أن الموت اخذني .

هز كتفيه قليلا وفي صوت به المرح المتكلف قال :

ـ ارجوك ، لاتشغلي بالك بأمري ..

وبعد برهة قصيرة قال :

ـ لقد كان في كل جيل من اجيال آل ديكويرو رجل قضى حياته اعزبا . وكان مقضيا على أن اكون انا رجل هذا الجيل . لقد توفرت لي جميع الصفات اللازمة لذلك ، وهذا امر لا تنكرينه انت

بالذات . ان ما يؤسفنى فقط هو اننا انجبنا طفلة مما يهدد الاسم بالزوال . حقيقة لو اننا ظللنا معا لما رغبنا فى الحصول على اطفال آخرين ... اذن ... سواء أهـذا ام ذاك ... فالامر كله على مايرام ... لا تتحركى ... ابقى فى مكانك .

اشار الى احدى سيارات الاجرة وعاد الى تيريز يخبرها ان ماتناولاه من مشروب قد دفع ثمنه .

* * *

نظـرت تيريز طويلا الى قطره شراب البورتو الباقية فى قاع الكاس التى شربها برنار ، ثم عادت تسرح بنظرها بين المارين . ان منهم من يبدو وكانه ينتظر ، ثم يروح ويجىء على غير هدى . هذه امراة تتلفت مرتين وتبتسم لتيريز ، لعلها احـدى العاملات ، او لعلها متخفية فى ثياب العاملات ، هذه هى الساعات التى تلفظ فيها جميع مشاغل الخياطات كل من فيها الى عرض الطريق . لم تفكر تيريز فى ترك مكانها هذا ، وقررت الا تذهب فى هذا اليوم الى رؤية جان ازيفيدو . تنفست الصعداء : لقد نجت ، لم تعد تريد رؤيته . ما اسأم طول الحديث والبحث المستمر عن الصيـغ والعبارات ! انها تعرف الكثير عن جان ازيفيدو ، ولكن الاشخاص الذين تتمنى القرب منهم لاتعرف عنهم شيئا ... لا تعرف عنهم الا انهم لن يكلفوها عناء الاحاديث الطـويلة ــ لم تعد تيريز تخشى الوحـدة والانفراد . يكفيها ان تظل هكذا بلا حركة . انها تحس ان جسدها الذى ربما اجتذب اليه هناك وهو ممد فى برارى الجنوب جحافل النمل وقطعان الكلاب الضارية يجمع حوله فى هذه اللحظة اخلاطا مبهمة من الناس وحركة لاتهدأ من البشر . احست بالجوع فنهضت من مقعدها . نظرت فى مرايا مقهى اولد انجلند الى صورتها فرأت نفسها امراة شابة مرتدية ثياب السفر اللاصقة بجسمها مضفيـة عليها هنداما جميلا رائعا . تذكرت ايامها الماضية فى ارجلوز وقت ان كان وجهها بادى الارهاق وقد برز فيه صدغاها الشاحبـان وانفها الصغير . قالت لنفسها :

ــ لا تبدو على السن واضحة .

تناولت طعام الغداء فى شارع رويال الذى طالما داعب احلامها فى الماضى . ثم تساءلت :

ــ ما الداعى الى العودة الى الفندق مادمت لا اميل الى ذلك ؟

احست بسرور حار ينتشر فى انحاء جسمها بعد ان شربت نصف تلك الزجاجة من النبيذ . طلبت شيئا من السجائر . تقـدم اليها شاب يجلس الى المنضدة المجاورة بولاعته مشتعـلة فابتسمت . تذكرت فى هذه اللحظة الطريق المؤدى الى فيلاندر فى المسـاء بين اشجار الصنوبر الكئيبة ، وعجبت كيف انها من ساعة تمنت ان تعود اليه تذرعه الى جانب برنار .. هل هى تهوى هـذا البلد ام ذاك ؟ هل هى تحب اشجار الصنوبر ام اشجار الزينة المصطفة فى شوارع باريس ؟ هل هى تعشق المحيط الصاخب ام السهـل الهادىء الوديع ؟ لايهمها من كل ماهو حى يعيش غير الكائنات التى خلقت من لحم ودم .. قالت لنفسها :

ــ ليست المدينة بأحجارها ومبانيها هى الشىء الذى احبه واهواه ، لا ولا المحاضرات والمتاحف وما تحويه المدينة من متـع وجمال ، وانما هو تلك الغابة الحية التى تضطرب بين جدرانهـا والتى تمزقها الشهوات فى قوة ووحشية لم تر لهما مثيل فى اعتى الزوابع واشد الاعاصير .. ان الأنات التى كنت اسمعها فى الليل قادمة من اشجار الصنوبر فى ارجلوز لم تكن لتمس مشاعرى الا لان شيئا آدميا كان يصل منها الى قلبى .

كانت تيريز قد شربت قليلا ودخنت كثيـرا . كانت تضحك لنفسها كما لو كانت سعيدة ـ اعادت طلاء خديها وشفتيها فى عناية فائقة ، وبعد ان انحدرت الى الطريق ، سارت فيه على غير هدى .

تمـت